

طه بن
فريقان العظيم

الفقيه المشهور

والشيخ الفخر الحميري
القاهرة

الى

التي كانت تشيع زهابنا الى القصر
المسحور وتتلفى عروقتنا منه بنظرات
هائرة وبسمات ماعرة ولكن فيها
مع ذلك الرحمة والاشفاق والتشجيع
لائها نعرف كيف نعي زهرات
الادب وتبعث نشاط الادباء ...
الى : مرام طه حسين ...

نرفع حديث القصر المسحور ؟

نوفيه الحكيم و طه حسين

سَمِيرُ خَزَلِ

« من مأمنه يوثق الجذر ، كذلك قالت حكمة القدماء .
وأبت الظروف إلا أن أكون أنا الدليل الناصع على
صدق ما قالت حكمة القدماء . فقد منعت بالحياة العنيفة
المفعمة بألوان الشهوات المستلعة لي ، حتى لم أستطع لها
احتمالا ، وحتى ضعف كل جسمي وانهدت لها قواي ،
وعجزت لها أعصابي عن المقاومة فأصبحت سريع الغضب
سريع الرضى ، سريع الانفعال بوجه عام حتى أنكرت

نفسى وأنكرنى الناس ، ولم أر بداً من أن أفر بما بقى
لى من قوة العقل والجسم إلى مكان بعيد أخلو فيه إلى
نفسى ، وأستريح فيه من هذه الجهود المتصلة وأسترد فيه
بعض ما أنفقت من القوة ، حتى إذا استجمعت منه حظاً
لابأس به عدت إلى مصر فأنفقته مرة أخرى فى غير
تقصير ولا اقتصاد .

من أجل هذا كله عبرت البحر ومررت بباريس مرأً
سريعاً كأنه مر الطيف ، فلم يرنى الحى اللاتينى إلا مرة أو
مرتين . ثم أويت إلى هذه القرية النائية المنزوية فى عطف
من أعطاف الجبل ، إلى هذه القرية التى لا يعرفها
المصريون ، والتى يمرون بها فى طريقهم إلى المصايف
المعروفة دون أن يخطر لهم الوقوف عندها أو الإقامة
فيها . واخترت مع أهلى فندقاً متواضعاً متوسط الحال
لا تشغل أهله هذه الحركات العنيفة التى تشغل المصطافين
ولا يخطر لمصرى أن يأوى إليه إن ألم بهذه القرية
خطأ ، لأن المصريين فى العادة إذا عبروا البحر لا يأوون

إلا إلى الفنادق الفخمة التي يكثر فيها الفرح والمرح ويظن
بأهلها الغنى والثروة وتعود الترف والنعيم .

ولما بلغت الفندق أكرهت صاحبي على أن يختار
لنفسه أو اخترت له أنا غرفة في الطابق الأعلى الذي
لا يصعد إليه أحد إلا الذين لا يكفون بالراحة ولا
يشفقون من الجهد ، لأن غرفة صاحبي إذا كنا في أوروبا
هي في الوقت نفسه الملجأ الذي أُلجأ إليه إذا أردت
القراءة أو الاملاء .

وكذلك اعتقدت ، وكان لي الحق أن أعتقد ، أني قد
أمنت الضجيج والعجيج وضمنت الراحة والهدوء ،
وأعددت لنفسي ما أنا محتاج إليه لاسترد النشاط من
جهة ولأعوض الوقت الضائع من جهة أخرى ، فأقرأ
كثيراً وأكتب قليلاً .

وإني لمع صاحبي ذات يوم قد خلونا إلى ديوان من
دواوين الشعر ننظر فيه وانقطعت الصلة بيننا وبين العالم
الخارجي حتى ما نسمع هفيف الريح ولا حفيف الأغصان ولا

غناء الطير ولا صياح الأطفال الذين يلعبون في حديقة
الفندق ، وإذا الباب يطرق طرقاً خفيفاً لا نحفل به ولا
نلتفت إليه ، نظن أنه لا يعيننا وإنما يعنى الغرفة المجاورة
ولكن الطرق يتصل ويلح ، ثم يشتد شيئاً ، ثم يضطرني
الى أن ألتفت ، ويضطر صاحبي الى أن يضع الكتاب
ثم يضطره الى أن ينهض فيفتح الباب ليرى ما دونه ،
وكان قد أغلقه فاحكم إغلاقه إيثاراً للعافية واغراقاً في
التحفظ والاحتياط ، ولم يكد صاحبي يفتح الباب حتى
رأى شخصاً غريباً كان يقدر أن يرى كل انسان وأن يرى
كل شيء دون أن يراه . شخصاً شرقياً في زى أهل العراق
لم يعرفه قط ، وهو من أجل ذلك ينكره أشد الإنكار
وينكر وجوده في هذه القرية المنعزلة ، وينكر اهتدائه
الى هذا الفندق وصعوده الى هذا الطابق وطرقه باب هذه
الغرفة . وكان صاحبي مقتنعاً بأن هذا الشخص قد أخطأ
طريقه وجار عن سبيله وقصد الى غير مقصد ، ولكن
الشخص يسأله عنى ويدفع اليه كتاباً يطلب منه أن يتلوه

على . فيعود صاحبي الى حيران دهشاً قد كاد يدركه
الاختلاط لولا أنه تعود مثل هذه المفاجآت مندامتحتته
الأحداث بمصاحبتى . فهو يفض الكتاب ويقرأ على هذه
الأسطر .

سبرى

« علمت اليوم أنك معتزل فى عطف من أعطاف هذا
الجميل الذى أصطاف قريباً من قمته ، فنازعتنى نفسى إلى
أن أراك ، ثم دفعتنى نفسى إلى رؤيتك دفعا لم أجد عنه
مندوحة ، وكنت أحب أن أسعى إليك حتى لا أكلفك
مشقة الحركة وجهد الانتقال ، ولكنى آثرت أن تسعى
الى حتى لا أكلفك مشقة هى أثقل على نفسك فيما أعتقد
من المشقة الأولى لأنها معنوية فأنت تكره من غير شك
أن تسعى سيدة للقائك ، وأدبك يفرض عليك أن تسعى
أنت للقائها . وإذن فأنا أكتب إليك راجية أن تفضل
فتهيأ للقائى ، ولكنى أحب أن تعلم أنى لا أزار إلا
حين منتصف الليل وأن زيارتى لن تسكلفك جهداً ولا

عناء ، فاذا تقدم الليل وكاد ينتصف فانتظر متهيئاً للخروج
ولك أن تصطحب هذا الفتى الذى يلزمك لزوم الظل إن
لم تر من اصطحابه بدأ ، ولك أن تتركه إن كنت قد ضقت
به كما تضيق بكثير من الناس وبكثير من الأشياء من حين
إلى حين ، فأنا أعرف من أمرك ياسيدى أكثر مما تظن .
وتقبل تحية المشوقة إلى لقاءك ،

شهرزاد

أظنك أيها القارىء العزيز غير محتاج إلى أن أصف
لك ما أدركنى من الدهش وما أدرك صاحبي من الذهول ،
ولكن دهشى وذهول صاحبي تجاوزا حدهما حين التفت
صاحبي فلم ير الفتى العراقى الذى حمل إلينا الكتاب ، وحين
التمسه فى الفندق فلم ير له أثراً ، وحين سأل عنه أصحاب
الفندق فظهر له أنهم لم يروه ولم يحسوه ولم يعرفوا له
خبراً ، وأن أحداً لم يسألهم عن مكاننا وأنهم لم يدلوا أحداً
على هذا المكان .

كاد الدهش والذهول ينتهيان بصاحبي وبنى إلى الجنون

أو إلى ما هو أكثر من الجنون ، وقد خيل إلينا لحظة أن
خيالا من هذه الخيالات التي تملأ الضمائر وتنكرها
نفوسنا الشاعرة قد عبث بنا ، وأن الذي أثار هذا الخيال
هو حضور الأستاذ توفيق الحكيم إلى قريتنا منذ يومين .
فقد حضر صديقنا توفيق الحكيم إلى هذه القرية في
قصة لعلك تظهر عليها وقتاما ، ومنذ انتهى إلينا أكثر
الحديث بالطبع عن «أهل الكهف» ، و«شهر زاد» ، و«عودة
الروح» ، وما يتصل بذلك كله من الأدب والنقد والانتاج
والتقصير ، وكل هذا العناء الذي فررنا منه إلى فرنسا
مقسمين أن نتجنبه أثناء الصيف . نخيل إلى صاحبي وإلى
أن كثرة الحديث في الأدب وفي أبطال توفيق الحكيم
قد سحرت عقولنا وصورت لنا كل هذا القصص الذي
عرضته عليك ، ولكن الكتاب كان بين يدي صاحبي
يمسه يديه ويراه بعينه ويقرأ على ما فيه من الكلام .
وجعلنا كلما تقدم النهار ودنونا من المساء اشتد
اضطرابنا وامتلاأت قلوبنا وجلا ورعباً حتى أنكرنا

خلطاًؤنا وأشفق على أهلى وخيل إليهم أنى أتها لعة من
العلل أو للون من ألوان الحمى ، ولست أخفى عليك أنى
اجتهدت كما اجتهد صاحبى فى أن نخفى هذه القصة على من
حولنا مخافة أن يظن بنا الجنون وأن ندخل الروع على
قوم آمنين .

ومن عادتنا إذا رفنا أيدينا عن طعام العشاء أن نمشى
قليلاً فى طريق من هذه الطرق الجبلية نستمتع بهذا
الهواء الطلق الأرج ثم نعود إلى مخبئنا فنخلو إلى كتبنا
حتى يدعونا النوم إلى أن نستريح . وقد جهدنا رغم ما كان
يملاً قلوبنا من هذا الخوف المتزايد من لحظة إلى لحظة فى
أن نجري الأمور كما تعودنا أن نجريها دون أن نغير شيئاً
بما ألفنا .

فلما آوينا آخر الأمر إلى غرفتنا الشاهقة فى السماء لم
نقرأ صحيفة ولم نفتح كتاباً ولم ننظر فى ديوان ، وإنما ليثنا
فيما كنا فيه من دهش وحيرة وذهول ننتظر أحداً خطرين :
فاما أن يتحقق ما أنبأنا به الكتاب وإذن فالله وحده

يعلم ما وراء ذلك ، وإما أن يتكشف الأمر عن لا شيء
فينتصف الليل وكأننا لم نتسلم كتاباً ولم ن تلق دعوة ولم
نتعرض لخطر ولم نحس خوفاً ، وإذن فهو الشر الذي
ليس بعده شر ، هو الجنون الذي لا يختص به فرد من
الأفراد وإنما يشترك فيه اثنان

وهذه دقائق إحدى عشرة تنبئنا بأن انتصاف الليل
ليس بعيداً وهذا العرق البارد يسيل على جبهتنا ،
وهنا نحن هذان نتكلف الجلد ونحن على أسناننا أن تصر
وعلى فرائصنا أن ترتعد ولكن ماذا ! هذا الباب يطرق
طرقاً خفيفاً ، ثم يفتح دون أن نأذن بالدخول ، ثم ...
ونفיק وإذا نحن في مكان غير المكان الذي أنفقنا فيه
أول الليل ، وليكن الغريب أننا لا ننكر أنفسنا ولا
نحس نخوفاً ولا وجلًا ولا نجد إلا ما يجده الزائر لأنسان
ذو خطر من هذا التهيّب اليسير الذي يشغله أثناء الانتظار
أن يؤذن له .

ولا يطول هذا الانتظار وإنما هو قصير جداً لا يتيح

لنا أن نتبين الغرفة التي ننتظر فيها ولا الأثاث الذي يحيط
بنا ، فهذا باب يفتح في جانب من جوانب الغرفة ، وهذه
فتاة رشيقة أنيقة تدخل منه مشيرة قائلة في خفة وفي لهجة
عربية فصيحة عذبة ، هل لذين السيدين أن يتبعاني ،
فاتبعها آمين مطمئنين كما تعودنا أن نفعل في مصر حين
نزور من نزور من العطاء وأشراف الناس . وهي تسعى
بين يدينا رشيقة خفيفة الروح كأنما تمشي في الهواء
ونحن نتبعها متنقلين معها من غرفة إلى غرفة ومن بهو إلى
بهو تصل إلينا من بعيد أنغام عذبة هادئة متصلة كأنها
غناء الأرواح ، إن كنا قد سمعنا غناء الأرواح . ثم تنتهي
بنا هذه الفتاة الحسنة إلى أستار ثقال فتقف لحظة مشيرة
إلينا أن سيدتها هنا وراء هذه الأستار . ثم تتقدم فتحنى
ستراً عن يمين وستراً عن شمال ، وتمضي خطوات ثم تنحني
محيية ثم تنحرف لنا عن الطريق ثم تنصرف وقد تركتنا
مع شهر زاد .

وشهر زاد تلقانا باسمه مبتهجة مشرقة الوجهه طلاقة

الأسارير ولكنها لا تتحرك من مكانها وإنما تشير إلى صاحب إشارة خفيفة أن أدنوا ، فدنوا وإذا هي مستلقية على هذا الأثاث الذى يسمونه الكرسي الطويل ، قد كثرت من حولها الوسائد ووضعت قريبا منها مائدة صغيرة قد أثقلتها الكتب والصحف والمجلات . وهي تمنحنا يدأ صغيرة رشيقة فاذا لثناها أذنت لنا بالجلوس وأبت إلا أن يكون مكانى قريبا منها ، فنجلس ويتصل الصمت لحظات . ثم نسمع صوتا لا أستطيع أن أشبهه الا بخير الماء حين يساقط هادئا نحيلا فى حوض من المرمر . وإذا هذا الصوت الحلو النحيل البعيد يقول لى : لقد روعناك ياسيدى على غير انتظار منك لهذا الخروج ، فمعدرة إليك ولا تلم إلا نفسك فقد كثر الحديث عنك وكثر ما قرأت لك حتى إذا علمت بقربك منى لم أجد من لقائك بدأ . قلت فى صوت مضطرب بعض الشيء ، عفوآ ياسيدتى أين أنا ومن تكونين ؟ أريد أن أعرف أناثم أنا أم يقظان ، فقد

اختلفت على أمور منذ اليوم أذهلتني عن نفسي ، ولا
أكاد أبلغ هذه الجملة حتى يتردد في هذه الغرفة الواسعة
ضحك نحيف حلو ، ثم تمس يدها الرشيقة الناعمة يدي
الغليظة الخشنة في رفق ويقول الصوت البعيد ، لا بأس
عليك ، لست نائماً ولا حالماً وإنما أنت يقظان حاضر
الذهن ، وأنت عند شهر زاد . شهر زاد ؟ ألا تعرفها ؟
لقد طال ما استمعت لها أيام الصبي ، وقد طال ما اشتغلت
بها أيام الشباب ، وما أقرب ما كتبت عنها منذ عامين
اثنين . قلت لا تعبني ياسيدي فلن تستطيعي أن تقنعيني ،
ولكنها قطعت على حديثي قائلة بل أستطيع أن أقنعك
بما أشاء ، لقد ملأت قلبك صيياً وملأت عقلك شاباً ، وما
ينبغي أن تنحرف عني حين ينحرف عنك الشباب .
إنك لتعلم حق العلم أن شهر زاد خالدة لم يدركها الموت
ولن يبلغها الفناء ولن يتحول عنها شبابها . ما بالك تشك
في هذا الآن وقد كنت مؤمناً به حين كنت تقرأ كتاب
هذا الشاعر العظيم المسكين الذي فارقنا منذ أسابيع .

قلت هنرى دى رينييه ؟ قالت نعم ، لقد قرأت كتابه
وعرفت منه أن لى قصرأ فى بغداد ، فوددت لو استطعت
أن تطير إلى هذا القصر وأن تلقانى وتسمع منى وتحدث
إلى ، فماذا يروحك وقد تحققت أمنيتك ، فأنت فى قصرى
وهذه يدى فى يدك ، وأنت تسمع حديثى وأنا أريد أن
أسمع حديثك ، قلت : وما شككت فى أنى مريض قد
أخذنى هذيان الحمى : فأنا إذن فى بغداد فى القصر الذى
وصفه هنرى دى رينييه ؟ قالت متضاحكة كلا ، أنت
فى فرنسا قريب من قمة من قم الألب . ألم تقرأ كتابى
هذا الصباح ؟ أليس من حق شهر زاد أن تصطاف كما
يصطاف الناس ، ومن الذى قضى عليها أن تنفق الدهر
سجينة فى قصرها السحرى القائم على شاطئ دجلة . لقد
تغير الزمان وارتقت الحضارة وأتيح لشهر زاد أن تسترد
حريتها وأن تطوف فى أقطار الأرض فتصطاف فى جبال
الألب وتشتو فى الريفيرا . قلت ما يمنعك أن تنفقى
الشتاء مرة فى مصر ؟ قالت لا شىء ، لقد هممت بذلك

فى الشفاء الماضى لولا هذا الفتى الغربى الذى تسمونه
توفىق الحكيم ، هو الذى ردى عن مصر بكتابه هذا
الذى لم أحبه ولا أستطیع أن أحبه . قلت متعجباً لماذا ؟
قلت لأنه كشریار لم يفهمنى وما أظنه سيفهمنى . قلت
وهل فهمك أحد ؟ قالت وما حرصكم على أن تفهمونى ؟
وما هذا المرض الذى أفسد علیكم كل شىء فأغراكم بفهم
كل شىء . قلت مهلاً یا سیدتى لا تغضبى ، فانى لم أفهمك
ولم أحاول فهمك ولن أحاوله ، لأنك أحب إلى وآثر
عندى وأجمل فى نفسى من أن أمسك بهذا السوء الذى
نسمیه الفهم واستكشاف الحقائق ، قالت وقد ملأها
الرضى والابتهاج فاستوت جالسة ، لهذا أحببت أن
أراك لأنك ترى مثل ما أرى وتؤمن بأن من فهم شیئاً
فقد قتله ، وتحب لى أن أحيأ فى نفسك فلا تحاول أن
تقتلى بالبحث عن حقیقتى والجد فى الانتهاء إليها .
ولكنك لا تعلم من أمرى كل شىء ، قلت ولا أريد
أن أعلم من أمرك كل شىء . قالت فى لهجة المتعبة المحزونة ،

شيء واحد أحب أن تعلمه حتى لا يكون حبك لي إعجاباً
كله ، فقد يرضيني أن يكون في هذا الإعجاب بي شيء من
الاشفاق على . قلت وما ذاك ؟ قالت في تهالك وفتور ،
علة أخذت تعتادني منذ حين ، هي ضيق الصدر الذي
يلم بي إذا جن الليل فيحرمني الراحة ويحول بيني وبين
النوم . وليست في الدنيا شهر زاد أخرى تستطيع أن
تدود عني هذا الضيق وتسليني عن هذا الحرج وتقص
علي من القصص ما يدعو إلى النوم كما كنت أفعل أنا
مع شريار في سالف الأزمان . قلت وقد أشرق وجهي
وامتلاً قلبي بشراً وانطلق من في ضحك لم أحسن
ملاحظته وتنظيمه واندفع في جسمي نشاط لم أستطع
كبحه ، وإذا أنا أرفع يدها الرشيقة الناعمة إلى شفتي فألتها
لثماً متصلاً وهي تلحظني دهشة متعجبة . قلت حين عاد إلى
الهدوء : لا بأس عليك ياسيدي ، علة طارئة لن تلبث أن تزول ،
سأردها عنك منذ الليلة ، سأصف لك الدواء الذي يردها
عنك آخر الدهر . قالت متلهفة وكيف ذاك ؟ وما ذاك ؟

ماذا تقول ؟ أجاد أنت ؟ أصادق أنت ؟ لقد عهدت لك مشغولاً بالمزاح ؟ قلت وقد عدت فأشبعت يدها ثمناً وتقبيلاً ، والمزاح وحده شفاؤك من هذه العلة ياسيدتى ، فلا تدعون إليك النوم من ليلتك هذه ، ولا علمك كيف تدعونه منذ غد . قالت وكيف يكون ذلك ؟ قلت ستأخذين لك مميراً . قالت مبتسمة فى شىء من السخرية ، وستكون أنت هذا السمير . قلت محزوناً : ليتنى أصلح لذلك ياسيدتى إذن أكون أسعد الناس ، قالت أولاً تصلح أنت لذلك ؟ قلت كلا ياسيدتى ، أنا أقل الناس حظاً من الخيال وأعجز الناس عن القصص ، وأضيقهم بنفسى وبالوقت ، ولولا أن الله قد ملأ الدنيا كتباً وتأذن أنها ستظل أبداً مملوءة كتباً لما استطعت لهذه الحياة احتمالاً . قالت ومن لى إذن بهذا السمير ؟ قلت وأنا لك به ياسيدتى ، إنه صديقك العزيز عليك ، الأثير عندك ، الحبيب إليك . قالت أوجز . قلت إنه توفيق الحكيم وهو منك قريب ليس بينك وبينه إلا ما كان بينك وبينى من الأمد حين كتبت إلى ، إنه فى

الفندق الذى أنا فيه . قالت وقد ملأها النشاط وأخذها
الاهتمام وامتزج فى صوتها الغضب والفرح معاً هو إذن
هنا هذا الآثم ، ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد .
قلت : ولتعلمن أنت يا سيدتى كيف يرضيك إذا أقبل النهار
وكيف يسليك إذا أظلم الليل ، لو تعلمين كيف سقط على
قريتنا هذه النائبة المعتزلة سقوط الندى . قالت كيف
سقط على هذه القرية ، قلت سبقته إليها البشائر بمقدمه
السعيد ، لو رأيتنا والباب يطرق علينا طرقاتاً عنيفاً مع
الصبح حتى إذا فتحنا للطارق رأينا ساعى البريد يحمل إلينا
كتاباً مستعجلاً من صاحبك ينبئنا فيه بمكانه من باريس
ورغبته فى أن يلحق بنا ويسألنا أن نختار له فندقاً يأوى
إليه وغديرأ يصطاد السمك فيه . وما نكاد ياسيدتى نفرغ
من قراءة الكتاب حتى يطرق الباب علينا طرقاتاً عنيفاً
فاذا فتحنا للطارق رأينا ساعية البرق تحمل إلينا رسالة من
صاحبك ينبئنا فيها بأنه قد ركب القطار ولم ينتظر رجوع
الجواب ، ونحن نلتمس له الفندق ونلتمس له الغدير

ونلتمس له المواضع التي يجحد فيها أدوات الصيد ، وهو
يقبل مع المساء كما تعرفينه ، قالت ومتى عرفته ؟ قلت
ألم تعرفيه من كتابه عنك . قالت كيف أقبل عليكم ، قلت :
أقبل كما ستعرفينه يقظان كالنائم ، حاضراً كالغائب ،
وغائباً كالحاضر ، قد أخذ من باعة الصحف ما استطاع
أن يأخذ ، وأخذ من باعة الكتب ما استطاع أن يأخذ
وقضى نهاره في القطار بين الكتب والصحف محتلساً بين
حين وحين نظرة من نافذة العربدة ، مفتوناً بما يرى ، حتى
إذا اطمأن به المكان يبتأ أخذ يتحدث فإذا هو دهش
لكل شيء ، سائل عن كل شيء . عارف بكل شيء بجاهل
بكل شيء ، يتحدث عن الجو ، ثم يثب إلى مقالة قراها
في هذه الصحيفة ، ويتحدث عن الجبل ثم يقفز إلى فصل
قرأه في ذلك الكتاب ، يقبل على الطعام ويأخذ فيه
ولكنه مشغول بالنشاط الأدبي في مصر ، وبهذا الفصل
الذي كتب عن ذلك المعرض الفني في باريس ، ثم يصبح
مشغولاً بالصيد مشغوقاً به ، متهاكاً عليه يلتمس له

أدواته ويعدها ويهيئها ، وهو يفكر فيك وفيما آل إليه
أمرك ، وفي كتابه عنك وفي ترجمة هذا الكتاب إلى
الفرنسية وفيما يمكن أولاً يمكن من تمثيل قصتك

قالت وقد نهضت مغضبة : ويل له ، أو يريد أن
يظهرني في الملاعب ويعرضني على النظارة ويسلني إلى
الممثلين ؟ قلت في شيء من المكر : أظنه يطمع في ذلك
ياسيدتي . قالت ليعلمن ما جزاء من يعبت بشهر زاد .
قلت لا تنغص عليه راحته ، إنه سعيد راض مبتهج
مغتبط يزور الجبال لأول مرة ، لو رأيت ابتهاجه حين
استكشف في الغابة شجرة البندق . لقد كان يأكل البندق
خافاً ويأكله رطباً ، ويأكله صرفاً ويأكله ممزوجاً ، ويعرف
أنه ثمر لشجر ولكنه لم يكن يعرف أين يكون ؟ ولا
كيف يكون ذلك الشجر ؟ فلما رآه ورأى عليه ثمره لم يملك
نفسه ابتهاجاً واغتراباً . وما أرى إلا أنه سيكتب عن
شجر البندق فصلاً أو كتاباً ، وما أرى إلا أنه سيحدث
بين الشجر وثمره حواراً لذناً . لا تنغص عليه راحته

ياسيدتى ، لقد رأى الثلج يغطى رؤوس الجبال لأول مرة ، وكان يقرأ ذلك فى الكتب ويسمع عنه فى الأحاديث وما كان يقدر أنه سيراه ، فلما رآه لم يسع نفسه فرحاً وسروراً ، وأقسم لا يطمئن ولا يستريح حتى يدنو منه ويتصل به ، ويملا منه يديه ، ولو استطاع لاحتمل منه ذخيرة إلى مصر .

لا تنغصى عليه راحته ياسيدتى . لقد قرأ وصف الجبل الأبيض حين كان تليذا وطالبا ، وسمع أخباره من السامعين ، ولم يخطر له قط أن الجبل الأبيض شىء يرى ، فلما رآه كاد يخرج عن طوره لولا أن تمالك واصطنع الوقار ، وهو يقسم لنا جهد أيمانه ليصعدن فيه وليبلغن قمته ، فإذا صعبنا له ذلك قال فى براءة الصبي النقي : ماذا ؟ أليس يكفى أن أغدو إليه مع الصبح وأعود منه حين ينتصف النهار فأدرك معكم الغداء ؟

وأنا مندفع فى هذا الحديث عن صديق الأديب وقد

شغلت به بعض الشيء ولكن صاحبتى مغرقة فى ضحك متصل لا يريد أن ينقضى قدردها إلى مكانها بين الوسائد لأنها عجزت عن القيام فسكت عنها حيناً حتى سكت عنها الضحك . وإذا هى تسألنى : أ هو من السذاجة بحيث تصف لى ؟ قلت وما وصفت لك من سذاجته إلا أقلامها قالت فان كتابه يصوره معقداً أشد التعقيد ، قلت هو كذلك معقد أشد التعقيد فاتخذه لك سميراً فستجدين عنده السذاجة المريحة حين تحتاجين إلى الراحة ، والتعقيد المضنى حين تحتاجين إلى الجد والتفكير . قالت وسيجد عندى علم ما لم يعلم من أمر شهر زاد .

وكان الخدم قد أقبلوا يحملون ألواناً من الطعام والشراب لا علم لنا بها ، فلما وضعوا ما كانوا يحملون وهموا أن ينصرفوا استوقفت أحدهم وقالت له : فى الفندق الذى ذهبت إليه صباح اليوم مصرى يقال له توفيق الحكيم فاذا كان الغد فأنى أريد أن أراه . سمع الخادم أمر سيده فأنحنى وانصرف .

ولست فى حاجة إلى أن أتم لك بقية ما كان بينها
وبينى من حديث فما أظن أن ذلك يعنىك وإنما هو يعنىنى
أنا ويعنى شهرزاد ، وحسبك أن تعلم أنى ودعتها آخر
الليل وإنما لمطمئنة النفس قد زال عنها الحرج وتهايات
لاستقبال ساعات نوم لذيذ . وأصبحت الشمس توفيق
الحكيم فى غرفته وفى حديقة الفندق وعند غدير الصيد
وفى مظانه من القرية فلا أجده . فأظن أنه ذهب متنزهاً
فى طريق من هذه الطرق الخضراء الفيحاء وأنه سيعود
الينا مع الظهر أو مع المساء ، ولكنه لا يعود مع الظهر
ولا مع المساء ، فما أشك فى أن أعوان شهرزاد قد
اختطفوه وفى أنه سجين هناك فى ذلك القصر السحرى
القائم عند قمة هذا الجبل من جبال الألب .

سجین شہر زاد

(شہر زاد تملی بجسمہا المشوق
کالحسام بین وساندها الحریریة)

شہر زاد — (للعبد القائم علی رأسها) هل تم خطف
توفیق الحکیم ؟

العبد — خطفناه یا مولائی .

شہر زاد — وماذا فعلتم به ؟

العبد — ألقيناه فی جب القصر المسحور .

شہر زاد — (ضاحكة عن در منضد) هذا الساذج

المعقد !

العبد — معقد ؟ ! هذا الرجل ؟ كلا يامولاتى .

شهر زاد — كيف ؟ ماذا رأيتم منه ؟

العبد — إنه السهولة بعينها . لم نكد نقبل عليه بسلاحنا حتى خلع فى الحال معطنه وعصب يعضه رأسه واتق يعضه جسمه ، ثم انطرح على الأرض فى هدوء رزين ، وجعل كأنه صريع قد أصيب ، وما وصلت اليه بعد يد ، وما لمسته أصبع .

شهر زاد — (باسمه) لقد كفى نفسه شر القتال .

العبد — لما وجهتنا إليه يامولاتى حسبنا أننا سنلاقي هزبراً .

شهر زاد — (ضاحكة) هزبر ؟ ؟ توفيق الحكيم ؟ !

العبد — بل أكثر من هذا يامولاتى . قد وجدناه

يحمل ...

شهر زاد — كتاباً .

العبد — بل « سنارة » ، مما يستعمل فى صيد السمك

الصغير . وقد علق « خُطافها » ، بثيابه ، من الروع لمرآنا !

شهر زاد — (وهي تضحك) ألم تجدوا معه قلباً وورقاً ؟
العبد — كلا .

شهر زاد — لم تجدوا معه غير « سنارة » ، صاد بها نفسه !!
العبد — بل إنا يامولاً لم نجد معه « طعاماً » ، مما يجتذب
به السمك . ولم نجد معه سلة يضع فيها ما يصيد . كل مامعه
ذلك العود من « الغاب » ، الذى لا نفع فيه ولا ضرر .

شهر زاد — (كالمخاطبة لنفسها) نعم ، إني أعرف
هذا الصنف من الرجال . إنه لن يصطاد سمكة فى حياته ،
ولا أحسب أنه يذهب يوماً إلى بحيرة أو نهر أو بحر .
إنما هو يخلق فى رأسه كل هذه الرغبات ، ويعد للوصول
إليها المعدات ، ويغمر نفسه فى ذلك الجو الذى ابتدعه
خياله . حتى إذا كان على بعد خطوة من التنفيذ والحقيقة ،
انتهى حلمه ولم يعد يعنيه من الأمر شيء .

العبد — أو مثل هذا الإنسان نائم أو يقظان ؟ !
شهر زاد — (على الفور) إنه نائم كاليقظان
ويقظان كالنائم .

العبد — مولاتى . . .

شهر زاد — مابك ؟

العبد — إنك . . . ترددتين العبارة التى قالها هنا
البارحة ذلك الرجل الذى كنت تنادين به بالـدكتور .

شهر زاد — (كمن يثوب إلى نفسه) طه حسين !

العبد — من هذا الرجل ؟ إني أراه ...

شهر زاد — تكلم !

العبد — شديد الدهاء .

شهر زاد — (باسمه) ماذا رأيت من دهائه ؟

العبد — لست أدري على التحقيق . إنما فى كلامه

وابتسامه شىء ينم عن سر مبهم وغرض خفى .

شهر زاد — رح ، إنك لست أعرف منى بالرجال .

ليس فى الأمر سر ولا غرض . إنما هذا الدكتور رجل

صریح مستقيم ، وقد أشار على بأمور سأعمل بها .

العبد — هو الذى أشار بـخطف هذا الرجل المسكين ؟

شهر زاد — أيها العبد ! إلزم مكانك ولا تعترض على .

العبد - عفواً يا مولاتى وغفراً ! إنك تعرفين
إخلاصى وخضوعى . إنها زلة لسان .

شهر زاد - هذا الرجل المسكين إنما هو مسكين حقاً
إذا تركناه حراً طليقاً ، إنما ينبغى أن نقتنصه ونحبسه فى
هذا القصر المسحور لتزهر حياته ويبدو معدنه وتظهر
قيمه .

العبد - من هذا الذى لا تزهر حياته إلا فى الحبس !!
شهر زاد - إنه ليس مثلك . إنه خلق لبقى إلى بجانبى
يبادلنى الفكر .

العبد - فهمت ، تريدن سميراً يؤانسك فى أوقات
الضجر .

شهر زاد - (كالمخاطبة لنفسها) نعم . إنى الآن فى
سأم دائم ، لأنى لا أجده ، بعد شهربار ، عقلاً وخيالاً
يهران عقلى وخيالى .

العبد - إن الملك شهربار ذهب ولم يعد .
شهر زاد - (كالمخاطبة لنفسها) نعم ، لقد أضعته أنا ،

لقد كان حراً طليقاً مرحاً كالطفل فاوحيته إليه بأشياء
كبرى مستحيلة ذهب يبحث عنها فلم يعد .

العبد - (كمن نسي نفسه) وقمر ، وأنا . . كل الناس
كانوا أحراراً قبل أن يعرفوك !

شهرزاد - (تثوب إلى نفسها) ماذا تقول ؟
أجنت أيها العبد ! أنت تخاطبني بهذا الكلام ؟ أنسيت
ما قلت لك : إن الماضي قد مات ، وإذا أردت أن تبقى
حياً فكن خادماً لا يذكرك شيئاً مما كان .

العبد - غفراً يا مولاتي . إنها كانت أيضاً زلة لسان
شهرزاد - آه ! إني لفي ضجر . أو لم يعد عقلي قديراً
على أن يوحى إلي أحد بشيء . . . ما هذا الشقاء !

العبد - أتأذنين ، أحضر السجين بين يديك ؟

شهرزاد - نعم إنه الآن كل رجائي :

العبد - يا مولاتي . لا تضعي كل أملاك في هذا

المخلوق المسكين ! إنه غير قدير على صيد سمكة !

شهرزاد - ربما كان قديراً على صيد عقلي .

العبد — حاشا أن يكون عقلك يامولآتى أهون
اقتناصا من السمك ! !

شهرزاد — أيها الأحق ! لا محل هنا لتلك المقارنة .
العبد — ومع ذلك . ألا تذكرين قول ذلك
الدكتور ؟

شهرزاد — ماذا قال ؟
العبد — قال البارحة إن هذا الإنسان لم
يفهمك قط . .

شهرزاد — سنرى .

العبد — متى تريدن رؤية السجين ؟
شهرزاد — الآن .

(يذهب العبد مسرعاً . . . وتبقى
شهرزاد بلا حراك تفكر لحظة ، ثم تهض فجأة
وتتجه الى مرآة في ركن مظلم ناء في أقصى المكان ، وتأخذ
في إصلاح هندامها وتنظيم شعرها وصبغ شفيتها
وأظافرها . . .)

العبد — (يعود وهو يقود توفيقا الحكيم بمعطفه
الأسود و « سنارة » صيده) تقدم يا هذا !
توفيق — (للعبد) إلى أين أيضاً ؟ !
العبد — قلت لك تقدم !

توفيق — (يتأمل ما حوله ويخاطب نفسه) أما
أنى خُطفت فهذا لا شك فيه . نعم . ان صحت فراستي
وصدقت فطنتي فانا الآن مخطوف . (يستدرك متنبهاً
لما قال) ما هذا الحق ! أهو أمر يحتاج إلى فراسة وفطنة
أن أعرف أين أنا الآن ؟ إني أكاد أجن جنونا . أخبرني
أيها الأسود ! (يتأمل العبد ويخاطب نفسه معجباً)
ما أصلح هذا الأسود لتمثيل دور « العبد » في قصتي
« شهرزاد » . . . (يمسك بذراع العبد) أخبرني أيها . . .
العبد — (يلمح مولاته مقبلة إلى وسائدها فينهر
سجينة) صه !

توفيق — ماذا جرى ؟
العبد — (همساً) اركع !

توفيق - (لا يفهم) أركع ؟ لماذا ؟ لمن ؟
شهرزاد - (تبدو في جمال وجلال ودلال) هذا
أنت ؟ !

توفيق - (يلتفت إلى الصوت الموسيقى مشدوهاً
يتمالك أن يركع من تلقاء نفسه في غير وعي) ؟
شهرزاد - (تبسم راضية ثم تهمس إلى العبد) أتركنا !
العبد - (ينصرف وهو يلقي على السجين الراكع
نظرة استغراب لحاله واضطرابه) ؟

شهرزاد - (للسجين في صوتها العذب) انهض !
توفيق - (ينهض وهو مطرق) ؟
شهرزاد - (باسمه) عرفتني ؟
توفيق - (في صوت خافت ولم يزل عنه بعد أثر
الدهش) نعم .

شهرزاد - (معجبة مغتبطة) لا يدهشني ذلك منك ،
فأنت عقل كبير وخيال واسع .
توفيق - (ينظر إليها ولا يفهم عنها) ؟

شهرزاد - لماذا تنظر إلى هكذا ! ألا تصدقني ؟

توفيق - أ... و... تعرفيتني.. يا سيدتي ؟

شهرزاد - كيف لا . إني أعرفك كما تعرفني . ولقد كان ينبغي أن يلتقي أحدهنا الآخر .

توفيق - (لنفسه) أرجو أن ينتهي هذا اللقاء على خير !

شهرزاد - ما هذه النظرة الحيرى ! ألا يسرك أن

تراني ؟

توفيق - (مندفعاً بتأثير جمالها) بالطبع . إنه

لشرف عظيم .. (ثم يتذكر فيستدرك :) كلا .. إنه ليس كذلك .

شهرزاد - (في تقطيب) ماذا تقول ؟

توفيق - سيدتي ! لماذا أنا ههنا ؟

شهرزاد - (باسمه) إنك جئت كي تراني واراك .

توفيق - فقط ؟؟ كلا يا سيدتي . في الأمر ولا شك

غلط ! أنا رجل من اهل مصر أضنانى التعب والجهد طوال اعوام قضيتها في قراءة وكتابة وأعمال رسمية بغير هدنة

أو انقطاع ، فجت هذا الصيف إلى جبال الألب للنزهة
وراحة البال . لكن .. بينا أنا أسير الهوينا في المساء
في ذلك الطريق المؤدى إلى شامونيكس ، أستنشق النسيم
المعطر بأريج أزهار التفاح والبندق ، القائمة اشجاره في
الغابات الخضراء بسفح الجبل ذى القمة البيضاء . إذا
رجال مدججون بالسلاح ...

شهرزاد - (باسمه) أعرف .. أعرف . ولقد
قاومتهم أنت مقاومة الهزبر !
توفيق - فعلت ما استطعت ، ولكن الكثرة تغلب
الشجاعة .

شهرزاد - (تخفى ضحكها) صدقت ، أيها الشجاع !
توفيق - وبعد يا سيدتى ، متى يخلى سبيلى ؟
شهرزاد - (فى دلال) أبهذه السرعة مللتنا ؟
توفيق - أنت حقاً على غاية اللطف والظرف والجمال
ولكن ...

شهرزاد - ولكن ؟

توفيق - روى الآن ولا شك بين يديك
الصغيرتين . وأنت الآن صاحبة الأمر والنهى . فمرى
رجالك بأطلاق سراحى وخذوا مالى وثيابى حلالاً لكم .
شهرزاد - (فى تقطيب) ما ظنك بى ؟ إنك فيما
أرى تجهل من أنا .

توفيق - لا مع الأسف . لست أستطيع أن أجهلك .
إن معرفتك لا تحتاج إلى فراسة ولا إلى فطنة .
شهرزاد (فى ارتياب) من أنا ؟

توفيق - أنت ولا فخر زعيمة الخطافين .
شهرزاد - (فى خيبة مرة) أنا ؟ (كالمخاطبة لنفسها)
أنا التى حسبت أنه عرفنى ! صدق الدكتور . إنه ليس
ساذجاً فحسب . إنه أبله . !

توفيق - (يرى تغيرها) ماذا جرى ؟ أترينى
غلطت يا سيدتى ؟
شهرزاد - لا .

توفيق - أرى وجهك قد تغير .

شهرزاد — يا خيبة الأمل !

توفيق — نعم . كنتم تحسبون انكم وقعتم على موسر
من اصحاب الملايين الامر يكان المصطافين . ولكن رجالك
ياسيدتى قصار النظر إذ اختطفوا لك اديباً ، عامر الجيب
لا بأوراق البنك بل ، بأوراق النثر !

شهرزاد — (ترفع رأسها سريعاً فى امل) وهل أنت
حقاً عامر الجيب بالنثر ؟

توفيق — لا نثر ولا شعر . تركت كل هذا فى مصر
وجئت هنا للراحة والسكينة وفراغ البال (بعد لحظة)
وأنت ما يعينيك من امر الشعر والنثر ؟
شهرزاد — هذا كل ما يعينى . لقد اختطفتك لنثر
وفكرك .

توفيق — (ساخراً) شىء جميل !
شهرزاد — إن شئون الفكر والعقل والخيال هى
كل حياتى .

توفيق - أنت ، يا من تخطفين الناس ليلا من
الطرقات !!

شهرزاد - إني لا أخطف إلا الموهوبين أمثالك .

توفيق - (في سخرية) أستغفر الله !

شهرزاد - ألا تصدق ؟ آه لو عرفت حقيقتي
لصدقتني من ساعتك ولكنك نائم كاليقظان ويقظان
كالنائم . تمر بك الحقائق كأنها أشباح ، وترى الأشباح
كأنها حقائق . أنت واثق بأنك لم ترني من قبل ؟

توفيق - واثق أنك لم تشرفيني بالخطف قبل الآن !
شهرزاد - انظر إلى عيني الصافيتين !

توفيق - إنهما خضراوان كعيون القطط والسنانير !

شهرزاد - لقد شغفت بهما أنت يوما ، وكتبت عني
وعنهما كتابا .

توفيق - أنا ؟ أين ومتى ؟ حاشا أن اكتب كتابا عن
امرأة أو عيون امرأة .

شهرزاد - إني امرأة لا ككل النساء .

توفيق — حقيقة . لم أر مثل جمالك قط . ولو كنت
ممثلة ، لما صلحت امرأة في الوجود غيرك لتمثيل ذلك
الدور العسير في روايتي العسيرة . ولكنك امرأة على
الرغم من جمالها لا يعنيني الآن من أمرها شيء . فما جئت
الجبيل أطلب المغامرات ، إنما أطلب الراحة والسكينة
والصفاء .

شهرزاد — ألا أستطيع أن أدخل حياتك فأثير
ساكنها ؟

توفيق — وما حظك من إقلاق راحتي وصفوي ؟
شهرزاد — قد أوحى إليك بشيء .
توفيق — أي شيء ؟

شهرزاد — قصة مثلاً أو كتاب .
توفيق — هل أغراك أحدي ؟
شهرزاد — كلا . (بعد لحظة) هل تعرف طه حسين ؟
توفيق — إنه يقيم معي في فندق « مون جولي »
بسفح الجبل . ما ذا جرى له ؟ أخطف هو أيضاً ؟

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) كلا . إنه لا يحوجنا
إلى الخطف . إني إذا طلبته في أي حين أقبل على دائماً
دون إبطاء .

توفيق — وكيف عرفته ؟

شهرزاد — إني أقرأ كتاباته كلها منذ أن حمل القلم ،
وأعرف كتبه « الأيام » و « في الصيف » و « على هامش
السيرة » كما أعرف نفسي .

توفيق — أمرك بدأ يدهشني . من أنت ! أ طالبة من
طالبات السوربون ؟

شهرزاد — أنا ، . ألا تعرف من أنا ؟

توفيق — قلت لك لم أنل بعد هذا الشرف .

شهرزاد — ألم تسمع بامرأة تدعى « شهرزاد » ؟

توفيق — سمعت بها حقيقة .

شهرزاد — سمعت بها فقط ! يا لك من .. كيف

أصغتك !

توفيق — (يطيل النظر إلى شهر زاد) أنت ! ؟

شهر زاد — عرفتني حقاً هذه المرة ؟

توفيق — (كالنائم اليقظان) هي !!

شهر زاد — (في صوت كالهمس) نعم . أما كنت

تتوقع رؤيتي هنا ؟

توفيق — هي .. في جبال سافوا العليا . ! أهذا ممكن ؟

أهذا معقول ؟ !

شهر زاد — إنك تعرف أنها تستطيع أن تكون

في كل مكان .

توفيق — (كالمخاطب لنفسه) . « صورتها كانت

تتبعك في كل مكان . . .

شهر زاد — نعم ، هكذا قال شريار غنى يوماً لقمر .

توفيق — عجياً ! أنت إذن هي التي أوحى إلى

بكتابي . أنت هي التي خرجت من عقلي وفكري ! ومع

ذلك يا شهر زاد .. تخطفيني اليوم وتحبسيني بين جدران

هذا القصر الكبير ؟ !

شهرزاد — (باسمه) وأنت أيضاً ، ألم تخطفني وتحبسني
بين دفتي كتاب من القطع الكبير ؟

توفيق — آه تنتقمين إذن ! ولكنك قد أسرفت
وغلوت . فأنت قد خطفتني وحبستني في الواقع والحقيقة
شهرزاد — (في ابتسامة غامضة) الحقيقة !
توفيق — هذا ما لا شك عندي فيه .

شهرزاد — دع الحقيقة في مكانها هادئة .
توفيق — (ينظر إليها ملياً) يا للعجب ! نعم إنني قد
عرفت الآن ابتسامتك الغامضة ! أنت هي شهرزاد بلا
مراء ، كما بدت في مرآة فكري لأول مرة . أتأذنين لي
في لثم يدك طويلاً . ؟

شهرزاد — (باسمه وهي تمد يدها) طويلاً ! إنكم
معشر الأدباء سواء !

توفيق — هل أطال أديب غيري لثم يدك ؟
شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) البارحة في منتصف
الليل . . !

توفيق — ما ذا تقولين ؟

شهرزاد — (تلتفت إليه فجأة) اسمع مني ! أتعرف

لما ذا طلبتك ؟

توفيق — لا .

شهرزاد — آه ! ما أحوجني اليوم إلى سمير يبق إلى

جاني يزيل عني السأم !

توفيق — أنا ؟ !

شهرزاد — ولم لا ؟

توفيق — أو لم تجدى في هذا الخلق من يصلح غيري

لهذا المنصب الخطير !

شهرزاد — ليس في الوجود غيرك . لقد دلني عليك

صديق أثق بحكمه وذوقه ورأيه .

توفيق — أهو صديق لك أم لي ؟

شهرزاد — لكلينا .

توفيق — إن صدقت فطنتي وفراستي فهو طه حسين ،

اسمعي أيتها الجميلة ! لقد لعب بك هذا الصديق الذي

تثقين بحكمه وذوقه ورأيه . فأنا آخر من يصلح لمسامرة
الملكات الضجرات في ليالى الصيف المقمرات !
شهرزاد — سنى .

توفيق — المسألة لا تحتاج إلى تجربة . إني رجل
جئت من مصر طلباً للكسل وبحثاً عن راحة البال .
شهرزاد — سمعت هذه العبارة منك ألف مرة ومرة !
توفيق — سيدتى العزيزة ! لو سألتك أمنية غالية .
شهرزاد — كل أمنية لك بحجة مهما غلت .
توفيق — أريد أن تتركين أثواب .
شهرزاد — إلا هذه . أنت ما خلقت لهذا .
توفيق — آه ! كم أضيق الآن ذرعاً بهذا الصنف
من النساء !

شهرزاد — أسمع نصيحي ؟ اذعن لما كتب عليك .
ولا تكن عنيداً كشهريار فى أول أمره . انك باق إلى
جانبي تسامرني رضيت أو أبيت . فلا تضطرنى إلى
العنف والأكراه .

توفيق — العنّف ! كلا ، لا لزوم للعنف بعد الآن .
كني ما حصل من خطف وقبض وسجن . أسامرك
وأمرى لله ! (كالمخاطب لنفسه) ولكن الله يتولى
جزاءك يا من أغريت بي وحرضت عليّ .

شهرزاد — (تستلقي على الوسائد وتضع رأسها
في راحتها) الآن حدثني عن أثر جبال الجليد في نفسك ،
وعن الغابات الخضراء . وعن ثمر البندق . هل حقاً
استكشفتها وأكلته بقشره !!

توفيق — يحدثك عن كل هذا الذي أخبرك به .
فهو قدير على وصف ذلك بالأبداع الذي وصف به
جبال الفوج ، في كتابه ، في الصيف ، وأنت تعرفينه
كما تعرفين نفسك !

شهرزاد — ولكني أريد أن أسمع منك أنت
ما حدث لك .

توفيق — ماذا حدث لي ؟ لقد نسيت .
شهرزاد — ألا تريد أن تقص عليّ !!

توفيق — (فجأة) صه ! قد خطرت لى فكرة
نورانية . أتريدى قتل الضجر ؟ عندى له دواء ناجع .
هلى بنا .

شهرزاد — إلى أين ؟

توفيق — إلى البحيرة . هذه « ستارتى » وآتى لك
« بستارة » ثم نذهب معاً نصطاد سمكاً . . من سمك
« الترويت » الذى تعج به البحيرة والجداول المنحدرة
من الجبال .

شهرزاد — أنا أصطاد سمكاً ؟

توفيق — وما الضرر ؟

شهرزاد — أهدأ رأى تراه لى ؟ ! يالك من ماذا
أقول لك ؟

توفيق — إنى لا أرى فى ذلك سبة . لقد كان
أبوك صياداً .

شهرزاد — أبى ؟ !

توفيق — لقد قرأت ذلك بعيني في نسخ عدة من
كتاب ألف ليلة وليلة .

شهرزاد — إنك قد جاوزت حدك يا هذا .

توفيق — صدقت . وإني لا أستحق منك الآن
غير الطرد خارج هذا القصر .

شهرزاد — إني لست بلهاء فأفعل ذلك . إنك باق هنا
كي تسامرنى . . هلم . ا سامرنى !

توفيق — لا حول ولا قوة إلا بالله !

شهرزاد — إن كنت لا تجد من الحقائق معيناً فأين
الخيال ! هل نضب خيالك هكذا وشيكاً ؟ !

توفيق — يظهر لى أنه نضب .

شهرزاد — واخجلاله ! هذا مؤلف وروائي وأديب

يعجز عن مسامرتى ليلة واحدة . وأنا التى سامرت ملكاً
جاهلاً غشوماً ألف ليلة وليلة !

توفيق — كلنا نعرف لك هذه العبقرية .

شهرزاد — كنت أحسبك تستطيع أن تستنبط لي شيئاً يسحر لي !

توفيق — إني أستطيع شيئاً .

شهرزاد — ما هو ؟

توفيق — أستطيع أن أصغى إليك . تكلمي أنت واستنبطي ما شئت وأنا أصغى .

شهرزاد — هذا بديع ! أخطفتك وجئت بك إلى هنا كي أسامرك أنا ؟ !

توفيق — إنك خلقت كي تتكلمي أنت .

شهرزاد — ماذا تقول ؟

توفيق — أقول إن كل عملك في الوجود أن تتكلمي

فيصغى إليك الناس . لا كل الناس . بل المحدودون والموهوبون !

شهرزاد — صدق طه حسين . إنك معقد ! بل أكثر

من معقد . إنك خبيث !

توفيق — وطه حسين ! أهو البراءة بعينها؟ ألا تعرفين
أنه مكر بك مكرأ جميلاً .

شهرزاد — كيف ذلك ؟

توفيق — إنه هو الذى كان يستطيع أن يسامرك
أبدع المسامرة . ولكنه مشغول ليله ونهاره « بالمتنبى »
ولقد أغراك بى ليفلت هو ويخلص إلى شاعره . وهكذا
آثر « المتنبى » على « شهرزاد »

شهرزاد — أهو فعل هذا ؟

توفيق — (منتصراً) عليك به ! وخطفه هين سهل . فهو
يجلس حيناً بمفرده يفكر تحت شجرة الزيزفون الكبيرة فى
حديقة الفندق ، وأحياناً يجلس معه صاحبه « فريد » يقرأ
له . ولا جناح ولا تريب فى خطفهما معاً .

شهرزاد

سمعت شهرزاد من أسيرها هذا الاغراء فرفعت كتفها
الجميلتين رفعا رفقا أنيقا لا يكاد يحس وقالت في سخرية لم
يلحظها الأسير الأديب رأى موفق،. ثم تناولت
قضييأ دقيقا من العاج فمست به اناء أجوف من الفضة سمع
له صوت فيه عذوبة وخفاء، وانفرجت له أستار جانبيه
من القطيفة المقصبة، وخرج من بين هذه الأستار ثلاث
فتيات حسان قد اعتدلت قاماتهن أجمل اعتدال وصورت

وجوههن أحسن تصوير ، تقدمن فى خطى متزنة متقاربة
حتى إذا دنون من سيدتهن انحنين فأطلن الانحناء . ثم
استوين فأحسن الاستواء والأسير قائم ذاهل يردد طرفه
الحائر بينهن وبين سيدتهن لا يفهم شيئاً ولا يقول شيئاً ،
وشهرزاد تنظر اليه وعلى ثغرها ابتسامتها الغامضة وتقول
له فى صوت تملؤه الأناة والمكر والدهاء والشعور بقوة
الملك والسلطان معاً « لا يزغ بصرىك ياسيدى ولا تسرع
إليك الفتنة فأنك لم تتجاوز بعد أول الطريق » . ويختلط
الأمر على الأسير فيذهب عنه ما كان قد أظهر من تجلد
واصطنع من وقار ، ويسوؤه أن قد نفذت شهرزاد إلى
نفسه فرأت اضطرابه وتردده وحيرته بين هذا الجمال الخالد
الذى استقر بين الوسائد الحريرية ، والذى كان يحاوره
منذ حين ، وهذا الجمال الرائع الذى انفرجت عنه الأستار ،
ويهم أن يجمعهم معترفاً ، ولكن شهرزاد تخفف عليه
المؤونة وتضع عنه الوزر ، وتتجه إلى هؤلاء الفتيات
الحسان قائلة: خذن هذا السيد فأصلحن من أمره وهيئته

لمسامرتي ، ثم عدن به إلى إذا صار لها أهلاً .

هنالك يطيش لب الأسير ويغيب رشده ويفارقه
صوابه ، فيسأل بماذا تأمرين يا سيدتي ! وماذا تريدن أن
يصنع بي ! وإلى من تسليتنني !

فتجيبه شهر زاد مبتسمة في شيء من القسوة ، ألم تنظر
إلى المرأة ؟ ألم تر أنك أشعث أغبر ؟ أتظن أنك على
هذه الحال الرثة تصلح لمسامرة الملوك ؟ .

قال الأسير : سيدتي إني لا أصلح لشيء ولم أطلب
شيئاً إلا أن أرد إلى حيث كنت وأعود حراً طلقاً أطوف
في المسالك والطرق حول سائنش وأتمس غديراً
أصطاد فيه السمك . قالت ولكن الله أراد لك أن تمسى
لى سميراً . قال وأنت تسليتنني إلى هؤلاء الفتيات الحسان
فماذا تريدن أن يصنعن بي ؟ . قالت : يصلحن من أمرك
ويزلن عنك ماركبك من الغبار وما علاك من شعث ، يحرين
المشط والمقص على رأسك ، وينزهن الموصى في لحيتك
هذه ، ويأخذن من أظافرك ويبدلنك من ثياب المدنية

هذه ثياب القصر، ثم يردودنك إلى سميحاً طلقاً، لا تقتحمك العين ولا يتجافى الطرف عن النظر إليك .

قال مرتاعاً : وهن اللاتي سيصنعن بي هذا كله؟
قالت : وما يسوءك من ذلك.

قال ما أعرف والله ما يسوءني مما يسرنى، ولكنى أتوقع يوماً كيوم بفنوس .

قالت : فى قصة أنا تول فرانس لقد ألهمته هذه القصة فى ساعة من ساعات فراغه وفى لحظة من لحظات عيى . ولكن لا بأس عليك فما أنت بالقديس وما أنا ..
قال مسرعاً : عفواً يا سيدتى

وأشارت هى إلى الفتيات أن أسرعن، فأحطن به ودفعنه دفعاً يسيراً إلى ما وراء الأستار

وخلت شهر زاد إلى نفسها فأخذت قلبها وكتبت إلى هذا الكتاب الذى ألفيته من الغد على مائدة صاحبي لم يحمله إلى ساعى البريد ولم يعرف صاحبي كما لم أعرف كيف وصل إلينا

سیدی :

«لک منی الشکر المضاعف والتحية الخالصة، لقد وجدت
فی زیارتک إیای راحة وترفیهاً علی، ولقد استقبلت بعد
انصرافک عنی نوماً هادئاً مطمئناً، ولقد نصحت لی فصدقت
النصح، وأشرت علی فأحسنّت المشورة، فقد خطف أصحابی
صديقک الأديب وحملوه إلى علی الحال التي کان علیها فی
طریق من طرق سالنش أشعث أغبر مهملاً قد اختلط
أمره وهو یحسب أن الرشید لم یفارقه، وامتلاً قلبه روعاً
ورعباً وهو یظن أنه أشجع الناس

حملوه إلى وقد اتخذ معطفه ترساً یتقی به
ما أقبل علیه من شر، ولم یخطر له أن
یقاوم المعتدین علیه حتی بعصا الصید هذه التي
کان یهزها فی یده كما یهز الفارس العربی رمحہ
السمری . ولم أکد أراه وأسمع له حتی استیقنت أنه كما
أنبأتی ساذج بری . زعم أنه شجاع وأنه ذاد عن نفسه
ما استطاع ولم یقدر أن الذین حملوه إلى قد أنبأونی بما لقوا

من مقاومته وما بلوا من حسن دفاعه عن نفسه . ولكنى
لم أكّد أحاوره وأطيل معه الحديث حتى تبين أنّه كما
أنبأتني عنه معقد شديد التعقيد، فقد أخذ يداورني ويماكرني
ويلقى إلى جملة ذات وجهين وأخرى ذات أوجه . راعه
أنى اتخذته سميراً فأراد أن يخلص من هذه الخدمة التي
يتهاكك عليها كثير من الأدباء وتتقطع دونها أعناق كثير
من أصحاب المواهب والنبوغ . فسلك إلى هذا التخلص
طرقاً أيسر ما توصف به أنها يسيرة كل اليسر ملتوية كل
الالتواء . ألم يطلب إلى أن آذن له في أن يتشاءب ؟ أرأيت
أديباً يتشاءب في حضرة شهرزاد ؟ ألم يعرض على أن أصبح
إلى الغدير أو البحيرة لنصطاد السمك معاً ؟.. فلما لفته إلى أن
شهرزاد لا ينبغي لها أن تصطاد السمك لم يخف من أن
يذكرني بأن أبي كان صياداً . إنه لساذج كل السذاجة ، معقد
كل التعقيد . لقد كان يدفعه تعميده إلى أن يماكر بي وينثر لي
الشباك والأشراك ، ولقد كانت سذاجته تخيل إلى أنى قد
انخدعت لمكره ووقعت في حباله . فتمدّ كان يفهم كلامي

على وجهه ولا يقدر أنى أستطيع أن ألقى مكرًا بمكر، وعبثًا
بعثت وخداعًا بخداع. له الله، إنه يظن أن المكر وقف
عليه، وأن الدهاء لم يخلق إلا له. إنه قد فهم كيد النساء فظن
أنه أبلغ كيدًا من النساء، ولكنى ملكت أمرى أكثر مما
ملك أمره، فخيلت إليه وخيل هو إلى نفسه أنى لم أنكر مما
قال شيئًا، وأظهرت له بأسى منه وخيبة أملى فيه وفى قدرته
على أن يسامرنى ويطرد عنى الحرج والضيق. فسرته ذلك
وأرضاه، وظن أن انتصاره محقق وأن الإفراج عنه قريب،
ولست أريد أن أغريك به ولا أن أفسد ما بينك وبينه من
الود، فأنا حريصة على أن تصلح الأمور أبدا بينكما،
ولست أريد أن أعاتبك ولا أن ألومك فانى لم أصدق ما
قال فيك، ولم أنخدع بكيدك لك، ولكنى أريد أن أؤكد لك
أنه ساذج حقًا. فقد زعم لى وظن أنى سأصدق ما زعم
زعم لى أنك إنما رغبتنى فى مسامرتك لتفلى أنت من هذه
المسامرة وتخلو إلى شاعرك الذى أنت مشغول به، والذى
تؤثر الاستماع له والتحدث عنه على مسامرة شهرزاد.

وقد رأى منى ما أقنعه باني مصدقة محقة مفكرة في الانتقام
فنجاوز الكيد إلى الاغراء ، وعرض على أن أخطفك كما
خطفته ، ويسر على أمر خطفك من حديقة الفندق تحت
شجرة الزيزفون ، أو من هذه الغرفة التي تخلو فيها مع
صاحبك إلى شاعرك هذا الذي يشغلك في هذه الأيام .
وقد أظهرت له قبول رأيه ، فلا تسل عما ملأ قلبه وظهر على
وجهه من الغبطة والبشر ، ولكن ابتهاجه لم يطل ، فما أسرع
مادعوت ثلاثاً من جوارى فأمرتهن أن يأخذنه فيفعلن
به الأفاعيل . ثم يرددنه إلى وقد صار أهلاً لمسامرتي . ولو
رأيت بين أيدي هؤلاء الفتيات لرأيت عجباً ، ولو سمعته
يتحدث اليهن لسمعت عجباً ، ولكني لن أقص عليك شيئاً
من ذلك وإنما أدع له إنباءك به ، فإن له في هذا فناً لا يخلو
من فكاهة ترضيك ، وأنت ستراه من غير شك ، وستراه
عندي ، فما أظنك تذكره زيارتي ، وما أصدق أن المتنبي
يشغلك عني . وهب المتنبي قادراً على أن يصرفك عن
شهرزاد فإن صاحبك في حاجة إليك . فأمره أشد مما تظن

خطراً . بل هو أشد خطراً مما كنت أقدر ومما كنت أريد ،
لقد كنت أتمس سميراً فدللتني عليه ، ولكن قصرى لم يكد
يحتويه حتى كثر الماكرون به والكائدون له والمتألبون
عليه . هؤلاء أشخاصه الذين خلقهم خلقاً في هذه القصة
التي نسجها حول شهرزاد ، والذين بعد عهدهم بي وانقطعت
أخبارهم عني حتى أنسيهم أو كدت أنساهم ، وحتى نسوني
أو كادوا ينسوني ، قد عرفوا مكانه من القصر وخضوعه
لسلطاني ، ولست أدري كيف عرفوا ذلك . فأقبلوا جميعاً
ولست أدري من أين أقبلوا وكلهم يريد أن يخاصمه وكلهم
يريد أن يقتصر منه ، لأنه صورهم على غير ما يحبون وأنطقهم
بما لا يرضون ، وأجرى على أيديهم من الأعمال وأدار في
رؤوسهم من الخواطر ما لم يخطر لأحد منهم ببال . وما ظنك
بشهریار الذي فارقت منذ أحقاب وأحقاب ، وقد عاد إلى اليوم
يحاورني ويجادلني في هذا الرجل الذي صورته كما تعرف وجعله
كما يقول مثلاً للغباء الذي يزعم الذكاء ، والغفلة التي تدعى
الفطنة ، والضعف الذي يتكلف القوة ، ومثلاً لا أكثر من

ذلك، وهو يلومنى ويغرينى ويحرضنى، ويسألنى كيف أعفو
عن هذا الذى اتهمنى فيما لا ترضى امرأة حقيرة أن تتهم
فيه، فكيف بملكة كريمة مثلى متسلطة على القلوب خالدة
على الأزمان . وقمر يقسم ما أضمر للمليكة غدرًا ولا أدار
فى خلدته شيئاً يستحى أن يظهره، والعبد - وويل لصاحبك
من العبد - إنه ثائر فائر، إنه مرغ مزبد، إنه مبرق مرعد،
إنه يريد أن يمزق صاحبك بأنياه وأظافره، إنه لا يطيق
التفكير فى العفو عن هذا الرجل الذى جعله صورة بشعة
لأبشع ما يتسلط على العقول والأبدان . وهو يغرينى
ويحرضنى ويريد أن يضرم النار فى قلبى لولا أن قلبى
أهدأ من أن تضطرم فيه النار . وهو يسألنى كيف أترك
الحياة لرجل صورنى فى هذه الضعة وجعلنى أهبط من أعلى
عليين لأكلف بهذا المخلوق البشع الدنيء، والساحر يقسم
ما سحر، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنيئة،
وأبو ميسور يقسم ما أظلت حائته إثمًا قط، حتى زاهدة

تقسم ما عرفت سرّاً ولا سئلت عنه ولا باحت به ولا
اتخذت وسيلة إلى معرفته . وكل هؤلاء مغيط محقق يلح
على في أن أنتقم له وأنتقم لنفسى من صديقك البائس
المسكين ، ومع أنى كنت ضيقة به ساخطة عليه حين
قرأت كتابه ، فقد أدركتني الرحمة له والرفق به حين
رأيت هؤلاء الناس ، بل حين رأيت هذه الأشباح كلها
تريد أن تشرب دمه وتأكل لحمه وتعرق عظمه عرقاً ، أسرع
إلى زيارتي يا سيدى فلعلك تعيننى على حماية هذا الصديق
المسكين .

على أننى لا أريد أن يظن بى صاحبك أنى خطفتك
كما خطفته ، فأنت أحب إلى وأوثق عندي من أن تخطف ،
ولكنى أريد أن تنبئنى باستعدادك لزيارتى . فاكتب إلى
إن كنت فى هذه الزيارة راغباً ولا تكلف نفسك محاولة
إرسال الكتاب إلى . ولكن إذا أتممت إملاءه فليضعه
صاحبك على المائدة فهذا يكفى . وأنا مظهرة أسيرى

البائس على كتابك ليعلم أن الناس جميعاً لا يخطفون، وأن
منهم من يزورون شهرزاد عن شوق إليها ورغبة في زيارتها،
وأن المتنبي مهما يشغلك فلن يصرفك عني. وإلى أن يصل
إلى كتابك أرجو أن تقبل ياسيدي تحية التي تنتظرك
مشوقة اليك «

إلى شمرزاد

ولست أدري كيف أصف لك أيها القارئ العزيز
ما أحدث هذا الكتاب في نفسي من الأثر ، فأنا صادق إن
أنبأتك بأنه ملأ قلبي بهجة وسروراً ، وأنا صادق إن أنبأتك
بأنه ملأ قلبي جزعاً وفزعاً ، وأنا صادق كذلك إن أنبأتك
بأنه أثار في نفسي حزناً يسيراً . فأما البهجة والسرور فلا نى
كنت أتحرق شوقاً إلى لقاء شهرزاد . وأما الجزع والفزع
فلا نى كنت أرتعد إشفاقاً على توفيق الحكيم أن تنقسمه

هذه الأشباح فيذهب شهر يار برأسه، ويذهب كل واحد منها بشلو من أشلائه . وأنا الذي دل عليه شهر زاد فعرضه لهذا الخطر المنكر، وللرجل أهله وأصدقائه في مصر قد فارقه من هوكا ضعيفاً ليعود اليهم قوياً أيدا . وهو بعد هذا كله صديق لي حبيب إلي، أوثر له العافية وأضن به على المكروه، وأتمنى له حياة متصلة مملوءة بحركاته هذه المضطربة المتناقضة التي ترضى وتسخط وتسرو وتسوء . وأما الحزن اليسير فلموجدة أحسستها حين رأيت صديقاً يكيد لصديقه وأديباً يتجنى على أديب . ولست أنكر أني قد مكرت به شيئاً حين أغريت به شهر زاد، ولكني لم أرد به إلا خيراً لأنني أتحت له لقاء تلك التي جعلته رجلاً معروفاً . فما كنت أقدر أنه سيمكر بي ويكيد لي على هذا النحو . أما صاحبي فلم يجد إلا غبطة وفرحاً لأنه سرى شهر زاد وقصر شهر زاد . وكان يقول لي هون عليك فما يتعرض صديقك لخطر ما ، ومتى رأيت الأشباح تتقسم بينها أجسام الأحياء؟ وهل تستطيع هذه الأشباح أن تثبت لكيد شهر زاد

ومكرك أنت إذا اجتمعتما على حماية توفيق؟ ومع ذلك
فأنك تحفظ كثيراً من هذه الصيغ السريانية والكلدانية
التي تتلوها فتطرد بها الأشباح من المكان الأهل بها، وترد
هذا المكان آمناً كله لا خوف على أهله ولا هم يحزنون .
وكان يقول لى لا تجدد على توفيق ولا تسيء به الظن،
فقد ضاقت عليه الحيل وأخذت عليه الطرق فاتخذ الواقعة
فيك عند شهرزاد وسيلة إلى الافلات من سجن شهرزاد .
وأنت تعرف صاحبك واندفاعه ورجوعه بعد الاندفاع،
ومن طبيعة الأدباء أن يمكر بعضهم ببعض ويكيد بعضهم
لبعض، والأمر منته بينكما إلى مودة لا تشوبها ضغينة ولا
حفيظة . فخلص قلبك من الحزن والخوف، واخل بينه وبين
الفرح بقاء شهرزاد وأمل على الكتاب الذي تنتظره
منك .

ثم يبسط الصحف أمامه ويأخذ القلم ويعفني من
هذه الحركة التي ألفتها كلها هممت بالاملاء ، وهي التماس
السجائر ، فيقدم إلى السجارة ويشعلها ويقول ما تعود أن

يقول « نعم ، فأملئ عليه » أدر كنى كتابك ياسيدتى وقد
بلغ منى الجهد والاعياء أقصى ما يستطيعان أن يبلغا من
رجل لم ينم الليل ولم ينم بالنهار . لو تعلمين كيف أنفقت
الساعات واللحظات منذ ودعتك لما احتجت إلى أن تنبئينى
بأنك لا تقبلين فى سعاية ولا تستجيبين فى لكيد . أتعرفين
شيئاً أروع من الليل العريض يحتم على الفضاء العريض
منيخاً بكل كلة كما يقول شاعرنا القديم . وقد أخذت السماء
ترميه من أشعة النجوم بسهام ماضية تبلغه وتنقذ فيه ،
ولكنها لا تنال منه شيئاً ولا تحدث فيه أثراً ، وإنما هو
ثابت لا ينتقل ومستقر لا يزول . أما أنا فقد عرفت روعة
هذا الليل ورهيبته أمس حين استقبلت المساء على غير موعد
منك ، ولكنى مملوء القلب أملاً . ألا يتقدم الليل حتى تأتينى
رسلك فأنفق معك ساعات كتلك الساعات التى لن أنساها .
ولم يكن صاحبى فيما أعلم أقل انتظاراً منى لهذه المفاجأة
الحلوة ولا أقل حرصاً منى على هذه الدعوة الكريمة . إنه
لم يتحدث اليك ولكنه رآك واستمع لك ، وهذا يكفيه

ليلاً قلبه شوقاً إلى رؤيتك وكلفا بحديثك. لقد استقبلنا
الليل ياسيدتى وإن قلبينا ليضطربان بهذا الأمل ويخفقان
بهذه الأمنية، ولقد حاولنا أن نقرأ الصحف وننظر في
الكتب، فجعل صاحبي يقرأ ما لا يرى وجعلت لا أسمع لما
كان يقول، تركته تائهاً في صحفه وكتبه وتركني ذاهباً مع
الأمل والخيال. كلانا يظهر لصاحبه أنه معنى به ملتفت
إليه، وكلانا يخفى على صاحبه أن عقله قد فارقه وأن لبه أسير
هناك في ذلك القصر الذي رأيناه وأقمنا فيه وتحدثنا إلى
أهله وسمعنا منهم، ولكننا لا نعرف إليه طريقاً ولا
نستطيع إليه سعيًا. وانتصف الليل فإذا الأمل كاذب، وإذا
الرجاء خائب، وإذا الحسرة لاذعة، وإذا هي تبدى نفسها،
وإذا كل منا يرى صاحبه كما هو، وإذا نحن نفترق لا لناوى
إلى المضاجع، ولكن لنسأل عنك ظلام الليل ونجوم السماء
وهذا النسيم المضطرب في الجو.

نعم ياسيدتى لقد تركت صاحبي لا لأستريح ولكن
لأخلو إلى خيالك وإلى ذكرك حين أعيتني الخلوة إلى

شخصك . فأنفقت ما بقي من الليل جالساً في شرفة تخرج
عن غرفتي شيئاً أستقبل الليل وأنس إلى صمته الرهيب
وأستمع بهذه الموسيقى الخافتة التي تبعثها فيه أحياء الغابة
والحقول . أو أذعر من حين إلى حين لهذه الدقات التي
تضطرب في الجو تحسب المسكينة أنها تقيد الليل وتقسمه
أجزاء وتنبئ بما مضى منه وتنبأ بما بقي ، وتتأذن بما
يبتنا وبين الفجر من آمال . وإنها لتفعل هذا كله بالقياس
إلى الذين أقفرت قلوبهم من الحب وبرئت نفوسهم من
الشوق ، فأما الذين رأوا شهرزاد ثم نأوا عنها فليلهم متصل
لا ينقضي ونهارهم متصل لا ينقضي أيضاً؛ لأن ليلهم ونهارهم
عليهم سواء ، كلاهما مظلم وكلاهما جامد وكلاهما طويل
ثقيل . كأن هؤلاء المحبين لا يعرفون الشمس إلا حين
يشرق لهم وجه شهرزاد ولا يعرفون الأمن والهدوء والدعة
والنعيم إلا حين يغمرهم جمال شهرزاد .

لقد صدق توفيق الحكيم يا سيدتي فأنا في هذه الأيام
مشغول بالمتنبي ولكني مشغول به عن كل شيء . وعن كل

إنسان إلا أنت . فان أمنيته الملحة عليه المضنية له المنغصة
لليله ونهاره تشبه أمنيته الملحة على المضنية لي المنغصة
للليل ونهارى ، ولكنى لا أتمنى كما كان يتمنى ملكا وسلطانا ،
ولا أشتهى كما كان يشتهى ثروة وغنى . إنما أتمنى لقاءك
والاستمتاع بجوارك القريب ، وأنى ملك يشبه الخضوع
لك أو يعدل الادعاء أمامك . وأنى ثروة تشبه الشعور
بأنى قريب منك ليس بينى وبين الغنى الذى يتمتع القلب
والعقل إلا أن أتجه إليك فأسمع منك أو أحس قربك
منى ؟

رحم الله المتنبى يا سيدتى فقد أعانتى على احتمال الشوق
ويسر على بعض الشئ . ثقل الليل لأنه ترجم عما كنت
أجد فى هذه الايات التى تغنى بها ذات ليلة فى أنطاكية
وتغنت نفسى بها الليلة البارحة فى سالنش ، ولولا بقية
من عقل تأين أن تستأثرى به كله رحمة بمحبك ، لأطاع
لسانى نفسى ولا ندفعت مغنيا هذه الايات يشق صوتى
بها سكون الليل ويوقظ بها الهادئين الهاجعين من حولى .

أتدكرين هذه الآيات ياسيدتى ، وهل تنسين شيئا ؟
وهل ينبغى لك أن تنسى شيئا ؟ استمعى لها فانها لا تصور
المتنبى وحده وإنما تصور كل محزون كئيب قد حيل بينه
وبين ما يتمنى وأكره مع ذلك على أن يحيا فيسهر الليل
ويضطرب فى النهار !

أعزمنى طالع هذا الليلُ فانظر
أمنك الصبحُ يفرق أن يؤوبا
كأن الفجر حبٌ مُستزار
يراعى من دُجته رقبيا
كأن نجوهُ حلى عليه
وقد حذيت قوائمه الجسوبا
كأن الجوى قاسى ما أقاسى
فصار سواده فيه شحوبا
كأن دجاهُ يجذبها سُهادى
فليس تغيبُ إلا أن يغيبا

أقلبُ فيه أجفاني كأنى

أعدُّ به على الدهر الذنوباً

وما ليل بأطولَ من نهار

يَظَلُّ بلحظ حسادى مشوباً

بهذه الآيات تغنى ضميرى بقية الليل ولكنه كان

يضع الشوق موضع العزم فان فراقك لم يبق لى

عزماً ولا حزماً . ثم أشار الفجر بأصبعه الوردية التى

أريتها أنت يا سيدتى لضيرير اليونان منذ ثلاثين قرناً

فاذا الليل الجاثم ينهزم ، وإذا الشمس تقبل فتبسط الضوء

والحياة على كل شىء وفى كل نفس ولكنى أظل محروماً

ضوء الشمس وحياتها لأنك أنت الشمس والحياة . وأنا

أحمل الطير المستيقظة التى تغدو من وكناتها فرحة مرحة

يسكرها نسيم الصبح وبرد الندى وضوء الشمس رسائل

إليك لعل بعضها أن يمر بقصرك المسحور فيرسل من

فيه نعمة تحمل إليك بعض ما أجد من لوعة وما أقاسى

من ألم. وأنا أهم مع صاحبي وجه النهار في الجبال
والربى أسأل عن أخبارك طير الغاب وما يعيث بأغصان
الشجر من نسيم؛ وأسأل عن أخبارك هذه الغدران
الضئيلة الصافية التي تنحدر من الجبال متعطفة متلوية
تناجي الصخور وتناغي الحصى لعل في مناجاتها ومناغاتها
شيئاً من حديثك يرد إلى بعض ما فقدت من أمن وهدوء
ولم تحمل إلى الطير نبأ ولم يبلغني النسيم خبراً ولم ترد
إلى مناجاة الغدران ومناغاتها أمناً ولا هدوءاً فأعود
قائلاً مستيئساً، ولكني أجد كتابك، فتبني الآن أمشغول
أنا عنك بالمتنبى؟ أكنت زاهداً في جوارك حين
ودعتك، أكنت راغباً عنك حين عدت إلى هذا الفندق
الذي أضيق به الآن أشد الضيق.

ليكن يا سيدتي، ليكن دعوة كريمة وطاعة سريعة
لا تنتظر إلا أن تأمرى بأن أشخص إليك. لست مشغولاً
عنك بشيء ولا بأحد، ولست فارغاً لأتحدث عن كيد
توفيق لي عندك فليس يعنيني إلا أن أبلغ رضاك عنى

وأضمن ثقتك بي . ومع ذلك الله يعلم ما أردت بالصدق
الأديب شراً ومتى كان القرب منك شراً . إنما أثرته
على نفسي حين دلتك عليه وأنبأتك به . وآثرتك أنت
على نفسي ياسيدتي لأن توفيقاً كان يسليني ويلهيني ويفتح
لي أبواباً من الرضى والبهجة ويعرض على فنوناً من
العبث والضحك ما كنت لأفرط فيها لولا اني أحسست
حاجتك إليه .

لا تيأسى منه ياسيدتي فتجدين عنده ما تريدن ، آمنيه
وهدي روعه ، ثم دعيه يرسل نفسه على سجيته واستمعي
لحديثه وأجيبه جادة حيناً وهازلة حيناً وانتظري نتيجة
ذلك فسترضين . لقد طلب إليك أن تصحبيه إلى الغدير
لتصيدي السمك معه ، فاصحبه ياسيدتي وأظهري أنك
تريدن الصيد فستضحكين كثيراً قبل أن تبلغي الغدير
حين ترينه فارساً مغواراً وبطلاً كماً قد ملأه الفخر
والاعجاب والته بما يحمل من أداة الصيد وستضحكين كما
ضحكنا حين يبلغ الغدير ويلقي أداة صيده في الماء ثم يحس

حركتها ثم يحس ثقلها ثم يستيقن أنه قد اصطاد ثم
يجذب ويجذب ويجهد نفسه في الجذب مستيقناً يا سيدتى
أنه قد ظفر بكنز من هذه الكنوز التي سحرت بها عقل
شهر يار ، ثم يخرج أداة صيده من الماء إلا أنه قد
فقد السنارة .

ستضحكين يا سيدتى حين ترينه يعاود هذا الجهاد
مرة ومرة ، ثم يرجع معك وقد صفرت يده من الصيد
واضطربت نفسه بين الرضى بما جاهد والسخط على
ما أخفق ، فهو يرثى لنفسه وهو يضحك من نفسه ، وهو
يحملك على أن ترثى له وتضحكى منه . نعم وستغرقين
فى الضحك حين ترينه يصطاد نفسه بعد أن عجز عن
صيد السمك . نعم يصطاد نفسه يا سيدتى ، لا تذكرى
ولا تدهشى ، فقد اصطاد توفيق نفسه ذات يوم . اختلط
فى خيطه واربتك ولم يعرف لنفسه مذهباً فاستغاث
أنجدونى فقد اصطدت نفسى ، وأقبل أصحابنا عليه فلم
يخلصوه من سنارته إلا بعد جهد . ثم خافوا عليه أن

يصطاد نفسه مرة أخرى فجردوه من سلاحه الخطر
ولقوه فى بعض الورق وقالوا له احتفظ به ولا تخرجه
إلا عند الغدير، ولكنه أضع سلاحه يا سيدتى ، وعاد
أعزل إلا من هذه العصى التى لا تنفع ولا تضر .
وأنا قاس حقاً أتندر بهذا الصديق البائس وقد
أحاط به ما وصفت من خطر وتألبت عليه هذه الأشباح
العاتية تريد أن تمحقه محقاً وتسحقه سحقاً . كلا كلا لن
ترضى نفسك عن هذا يا سيدتى ، ولن تسمحى به، ولن تأذنى
فيه ... من يسليك إذن ومن يسلىنى ومن يسلى قراء العربية
من المصريين والشرقيين ، وقراء الفرنسية والروسية
أيضاً فقد ترجم إلى الفرنسية والروسية كما تعلمين .

كلا كلا ، ستحمينه وستقومين دونه يا سيدتى إبقاء
على شخصه ورحمة لأهله وأصدقائه ومحبيه ثم حفاظاً
للاُدب وذوداً عن حرية الرأى ، بالشر بالخطر، بالبلاء ،
حتى أرواح الموتى قد مستها عدوى الطغيان فهى تمت
حرية الرأى وتعاقب العقل حين يفكر والقلب حين

يشعر ، والخيال حين يتكرر . ألم يكف حرية الرأي ما تلقاه
من عنت الطغاة بين الأحياء حتى تصبح أرواح الموتى
عدواً لهذه الحرية وظهيراً لخصومها وأعدائها ، لن ترضى
نفسك الآتية عن هذا الذل ياسيدتى ، إن الذين يعتدون
على حرية الرأي من الأحياء والأموات إنما يعتدون
عليك أنت لأنك مصدر الرأي والشعور والخيال ، إن
الذين يستعدنونك على توفيق ويغرونك به لا يستعدونك
إلا على نفسك ولا يغرونك إلا بنفسك ، فاحذرى ياسيدتى
أن تسمعى لهم .

ليبك ليك ، مرينى أكن عند ما تحبين

ولم أكد أتم الكتاب وأترك صاحبي يضم عليه
الغلاف حتى أحسست حركة خفيفة وإذا صاحبي ينهض
مذعوراً لأن الكتاب قد اختطف من يده اختطافاً .

فنى الحشم

مشى الأسير بين الفتيات الثلاث إلى الحمام مطأطء
الرأس ، يخفى عنهن وجهه بمعطفه وهو يردد فى نفسه
قائلاً :

— أهكذا قضى الأمر ! ولم يغن عني شيئاً ذلك
الحوار الذى دار بينى وبين شهرزاد ؟ وبعد ! أترك
نفسى حقاً لها ته الفتيات يفعلن بي الأفاعيل ؟ أرى والله
أن لم يبق لى غير الهرب .

وسار في سكون ينتهز نهزة صالحة . وأرادت الجوارى
أن يجاذبه الكلام فلم يتلقين جوابا . فقالت إحداهن :
— عجبا . إنه كالنائم .

وقالت الثانية :

— إنه شارد اللب كالذاهب إلى المشنقة !
فأجابت الأخيرة :

— ربما أفاق ونطق إذا غطسناه في الماء البارد .
فاصطكت أسنان الأسير وسرت في بدنه رعدة ،
غير أنه لزم الصمت . وواصل الجميع السير في دهاليز
مدودة ، بعضها مضى . وبعضها مظلّم ، حتى بلغوا منعطفًا ضيقًا
فوقفت الأولى وقالت :

— أرى أن تذهب إحدانا فتحضر الصابون وأن
تذهب أخرى فتحضر المواسي وأن أقود أنا السجين .
ثم نتقابل جميعا عند الحمام ؟

فرفعت الثانية عقيرتها مغيظة :

— عجا لهذه القسمة الضيزى ! تختارين لنفسك
الانفراد به ، ونذهب نحن للتافه من الأمر ! كلا . هذا لن
يكون ، أنا أقود الأسير وأنت تذهبين للصابون !
فصاحت بهما الثالثة :

— لا أنت ولا هي . بل أنا .
— أنت ! هيات ! تعال أيها السجين !
— دعيه ! تعال معي أنا أيها الأسير !
— أيها السجين ، قف إلى جانبي أنا .
وتناولنه في أيديهن كالكرة يتنازعنه ، وقد ساءت
حاله معهن وبج صوته من الصياح :
— حسبكن . حسبكن ! قد مزقتن المعطف بهذا الشد
والجذب ! اتفقن أولا فيما بينكن !

— نتفق ! هيات ، هيات أن نتفق بغير هذا !
خلعت صاحبة الكلام نعلها وخلعت الأخرى نعليها .
واشتبك الثلاث في معركة حامية الوطيس والأسير بينهن
يصيح :

— مهلاً، رفقاً ! إن النعال لا تصيب إلا قفاي ! اترككني

أحبة ريثما تصفين ما بينكن من حساب !

فدفعنه بعيداً عنهن . فنهض ونفض الغبار عن ثيابه

والتفت في الحال يمينا ويساراً فألقى بقربه دهليزا مقفرا

مظلماً فانسل فيه هارباً وهو يقول غير مصدق :

-- تلك هي الفرصة الذهبية التي لن يجود بمثلها

الزمان !

في ذلك الوقت كان طه حسين جالسا إلى صاحبه

« فريد » تحت شجرة الزيزفون يصغى إلى ما يقرؤه عليه

من شعر « المتنبي » ، وهو في حقيقة الأمر لا يصغى إلى

شيء ولا يستمع إلا إلى « شهرزاد » الماثلة في أعماق نفسه

تهمس اليه بصوتها العذب الرقيق كأنه صوت أجنحة

فراش جميل الألوان ، أو حفيف غصين يحمل بأزهار الربيع ،

ذلك الصوت الذي كلما سمعته فتن به افتتاناً . إنه يملاً أذنيه

الآن . بل إنه يرقص حوله كما ترقص عرائس الجن في

المروج . هو شيء غير منظور ، لكنه يحس له كيانا حيا
وجسما نابضا لا ككل الأجسام ! انه يدعو في اشارة
خفية ويجرى أمامه إلى جهة قصية . هنا لم يملك الدكتور
نفسه فنهض مستويا على قدميه . فوقف صاحبه عن
القراءة مستغربا :

— ماذا جرى ؟

— هلم بنا إليها .

— إلى من ؟ ؟

— إلى الفاتنة ربة القصر المسحور .

ففكر « فريد » قليلا ثم قال في تردد :

— ولكننا لم نتلق بعد منها دعوة إلى المثل بين يديها

— لا حاجة بنا إلى دعوة ولا أحسبها تكره لقائى فى

أى وقت .

— ولكننا . . نجعل مسالك هذا القصر وهو كثير

الدهاليز ، والوقت ليل ولم نعتد دخوله بغير رسول منها

أو دليل .

— قلت لك هلم ولا تزدد .

— إنها لمخاطرة .

فضغط د طه ، على يد صاحبه ضغطاً قوياً كاد يؤلمه

وصاح به :

— إني قد عزمت . وأنا رجل كما تعرف صلب الرأي

عنيد . ولا شيء يثنيني عن اقتحام المخاطر وارتداد المجاهل .

— هذه الصلابة قد عرضتك أحياناً إلى ما تكره .

— حقيقة . ولكنى . . هكذا خلقت . ولا قبل لى

بتغيير طبيعى وسجيتى . . . هلم . . .

* * *

وفى حلك الظلام سار الاثنان مجدين حتى بلغا أسوار

القصر المسحور . فتمهلا وجعلا يتلسان فى الأسوار بابا

أو مدخلا فلم يجدا من ذلك شيئاً . وأعياهما التعب فقعدا

على الأرض وأسندا ظهريهما إلى السور وتساءلا فى يأس :

— كيف السبيل إلى داخل القصر ، وكيف دخلنا

إذن أول مرة ؟ إنه لا باب له . حقاً إنه لقصر مسحور !

ولم يدم يأس طه حسين طويلاً وسرعان ما أسلم نفسه
للقدر كعادته . فالتمس في الظلام يد صاحبه الذي أُلجمه
الخوف ووحشة المكان وجهل المصير، وهزه هزاً خفيفاً
وقال له :

— ناولنى « سيجارة » !

فتاب « فريد » لنفسه وأخرج من جيبه لفائف التبغ
وقدم إلى الدكتور واحدة منها ثم أخرج علبة الكبريت
وأراد أن يحك العود في السور وإذا يده قد غارت هي
وعود الثقاب في فجوة لا آخر لها فصاح لساعته :

— هنا ثغرة في السور ؟

— أين ؟ أين ؟

وقام « طه » في الحال نازعاً من فمه « السيجارة » :

— فلندخل من هذه الثغرة !

ولم ينتظر من صاحبه رأياً ولا جواباً . فأمسك
بذراعه ودفعه أمامه إلى داخل الثغرة دفعا . ثم مشياً قليلاً
ثم كثيراً ، ثم أمعنا في المشى دون أن يصلوا إلى بصيص

من نور . فاقدا عود ثقاب فاذا هما يتخبطان في دهاليز
طويلة مظلمة متشعبة متقاطعة كأنها شبكة منصوبة . عندئذ
صاح « فريد » :

— حصل .

— ماهو الذى حصل ؟

— قد وقعنا فيما نكره .

— كيف ؟

— إن لم يكن هذا جب . فأغلب الظن أنا الساعة في موضع

لن نصل منه إلى شيء . آه ! وقعنا . من ذا الذى يستطيع

أن يخرجنا من هذه الدهاليز التى يضل فيها الخاطر

— وما رأى ؟

— تسألنى الآن رأى يادكتور ؟ لم يبق من

رأى إلا أن نختار لنا طريقا من هذه الطرق ونسير فيه

إلى النهاية .

— كلا . تلك ليست عادتى . اضرب بنا فى كل طريق

— لدى فكرة . ابق انت يا دكتور ما هنا ، ولأذهبن
أنا ركضنا فى كل جانب من جوانب المكان حتى إذا
ظفرت بشئ عدت إليك .
— نعم الرأى . اذهب وأنا فى انتظارك ههنا .

ذهب « فريد » وابتعد . وبقى الدكتور وحده فى ذلك
الموضع من الدهليز يفكر فى أمره تلك الليلة وفى هذا
المأزق الذى أدخل نفسه فيه وقد كان فى الفندق آمنا
مطمئنا ، لكنه يتبرم دائما بالأمن والاطمئنان ويخلعهما
عنه فى ضيق كما يخلع الرداء الثقيل فى يوم قيظ شديد .
ما الذى حمله على ترك جلسته الهادئة تحت الشجرة ليقف
هذه الوقفة فى الظلام يلتمس صوتا أو حركة فلا يسمع
الا أنفاسه المضطربة . نعم ، لقد بدأ القلق والخوف يجدان
إليه السيل . ويخيل إليه أنه يسمع الآن همسات بعيدة . أهى
حقيقة ؟ أم هو الوهم والخيال بدءا يلعبان على مسرح
الرأس التعب !! ولكن الهمسات تقترب وتتخذ

رنينا واضحا يدوى بين جدران الدهاليز . بل إنه يسمع
الساعة صوت أقدام تضرب الأرض . إنها تدنو ، تدنو
والأصوات تتضح . إنها أصوات نساء . نعم لم يبق ريب
في الأمر . ولم يلبث طه حسين أن أحاطت به الفتيات الثلاث
وهن يصحن :

— ها هوذا ! قد وجدناه !

ثم هجمن عليه هجمة واحدة وقبضن عليه بقوة وشدة
وجذبته جذبا عنيفا وهن يقلن في شبه صوت واحد :

— أيها الهارب !

ذهل طه حسين في أول الأمر ذهولا عقل لسانه .
فهذا الانقضاض عليه فجأة في هذا الليل الساجي ليس هين
الوقع على النفس . غير أنه ملك سر يعا ناصية أمره وقال دهشا :

— هارب ؟ ! على النقيض . إني جئت بنفسى
وأقبلت شوقا وحبا ...

فقالت الجوارى ساخرات :

— شوقاً وحبا ! ياله من مخادع !

وقالت الأولى وهي تقرصه قرصة مؤلمة :

— أيها الماكر! انتهزت فرصة خلاف دب بيننا و فررت ..

— آه! ذراعى! لا معنى لهذا القرص الموجه أيتها

السيدة المهذبة!

وقالت الثانية وهي تخزّه بأبرة معها :

— لقد قلبنا الدهاليز رأساً على عقب حتى وجدناك!

— آه! آه! كل شيء إلا وخز الأبر!

وقالت الثالثة وهي تعض أذنه :

— لو عرفت المصير المخيف الذى كان معداً لنا إن

كنت ذهبت ولم نعثر عليك!

ولم يطق الدكتور الألم فصاح وهو يضع يده على أذنه:

— كل هذا قد جاوز الحد! ألا يملن ياسيدتى أن

نتكلم بالعقل وأن تفاهم بالمنطق ..

فدوت فى المكان ضحكة الجوارى الهازئات :

— المنطق! سنريك الآن كيف يكون المنطق!

ثم حملنه على أكتافهن حملاً وسرن به سيراً سريعاً

يشبه الجرى واحداهن تقول :

— لقد أضعت الوقت ومولاتنا في الانتظار . ولا نرى
إلا حملك والركض بك ! أليس يعجبك هذا المنطق ؟
وأراد الدكتور أن يتكلم وأن يستعلم وأن يستخبر
فلم يسمح له بالكلام . ولم يصر هو كل الأصرار خشية
عودتهن الى القرص والوخز والعض . وهو الآن على
كل حال بخير فوق أكتافهن . وبلغت الفتيات أخيراً
مكاناً رحباً مضيئاً ، في صدره باب جميل النقوش كأبواب
قصر من قصور ألف ليلة وليلة . فقالت الأولى :
— ها هو ذا الحمام . فلندخل به !

ولم ينتظرن . ولم يستمعن الى اعتراض الدكتور .
فدخلن وتهاوسن وتغامزن ورفعنه قليلاً ثم ألقين به دفعة
واحدة في حوض كبير مملوء بالماء البارد وهن يضحكن
ضحكاً عالياً .

غاص طه حسين في الماء ثم طفا وظهر وهو يشق
ويسعل وينتفض قطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه
وثيابه والجوارى مستغرقات في ضحك مرتفع . وإحداهن
تشير إليه وتقول لصاحبتها :

— أنظرا ! إنه ينتفض كأنه عصفور بلله القطر ...

فاجابت الثانية على الفور :

— أى قطر . إنه كعصفور غمره البحر ؟ !

ونظرت إليه الثالثة وقالت ضاحكة :

— أنصتا ! إنه يريد أن يتكلم .

والتفت طه حسين حقاً إليهن وأراد أن يقول شيئاً

ولكنه ارتعد وعطس طويلاً، إلى أن هدأ أمره وخف

عباً بلائه واستطاع الكلام . فقال لهن :

— أهى ... مولاتكن التى أمرتكن أن تفعلن بى هذه

الأفاعيل ؟ !

فقلن جميعهن فى صوت واحد :

— نعم .

— «شهرزاد» تأمر بهذا . ؟ !

فقالت الأولى :

— انها أمرتنا بأكثر من هذا . إننا لم نصنع بك شيئاً

بعد . ؟

— أو لا يكفي ما صنعتن بي ؟

قالها طه حسين مرتاعاً على نحو أضحك الفتيات .

فتساند بعضهن إلى بعض . وقالت إحداهن له :

— ستري ما نصنع . أين المواسي ؟

فصاح الدكتور من قلب الحوض صيحة داوية :

— مواسي ؟ أو مرتن بذبحي ؟ !

فقال الجواري :

— كلا . لا تخف . لقد أمرنا فقط بإصلاح شأنك .

— اصلاح شأنى ! ! إذا كان ما حدث حتى الآن هو

مقدمة لاصلاح الشأن فلا شك أن ما هو آت أدهى وأمر !

فقال إحداهن :

— كلا . اطمئن . إنا لن نصنع بك إلا خيراً . سنخلق

لك لحيتك وشاربك ونجعل منك قى رشيلاً أمرد خليلاً

بمجالسة الملكات ومسامرة شهرزاد !

لم يكذ الدكتور يسمع كلمة « المسامرة » حتى لمع في

رأسه خاطر وتذكر رسالة شهرزاد إليه ورده عليها فقال
للفور :

— أيتها الجوارى ؟ إن فى الأمر خطأ . لست أنا

المقصود بكل هذا اللطف والعطف !

فقلت الفتيات فى تهكم ظاهر :

— ومن غيرك ؟

— أخرجنى من هذا الحوض ! فقد تبين لى الأمر .

— ما هذا الهذيان ! ؟ أنخرجك قبل أن تغير هيئتك

ونجمل سحتك !

— ذاك توفيق الحكيم الذى أمرتن به ... أما أنا ...

— إننا لانعرف أسماء . ولم نتسلم أسماء ، إنما قد

أعطينا شخصاً ، نهيه ونقلبه خير منقلب ثم نرده لمن
دفعه إلينا .

— وأين توفيق الحكيم ؟

— من هذا ؟ إننا لم نسمع قط بهذا الاسم . ولم نر الليلة

غيرك .

فحق طه حسين وملأه ياس وغىظ فأنفجر :
— أكاد أفقد صوابى ! أين توفىق الحكيم ؟ أيها
الناس ، دلونى فقط على هذا اللعين وأنا أتكفل
بالباقى !

وعندئذ قالت إحدى الجوارى :
— كفى إضاعة وقت ! إن الملكة فى الانتظار . أين
المواسى ؟

فصاح طه حسين :
— انتظرن أيتها الفتيات ! إن فى الأمر خطأ . وما
أنا المقصود . اذهبن بى إلى شهرزاد وهى تحكم فى الأمر...
فقال الأولى :

— ما بالك تخطط الآن فى الكلام . أين المنطق الذى
كنت تتحدث عنه !
وقالت الثانية :

— إن حكم شهرزاد فىك قد سبق . وأمرها صريح
لا إبهام فيه .

وأردفت الثالثة وقد رفعت في يدها الموسيقى :
— ها هو ذا الموسيقى ! تقدم .! . ولا أمل لك بعد الآن
في الأفلات ولا فائدة من المطال . فانا لن ندعك حتى
تنفذيك أمر الملكة ونعيدك إليها حسن المظهر جميل المنظر !
فأسقط في يد طه حسين ولم يجد لنفسه مخرجاً فطأطأ
الرأس هامساً :

— إنا لله وإنا إليه راجعون !

قصة شهريار

استلقت « شهريار » على فراشها وغاصت بين دمعس
وسائدها . وغاص عقلها في بحار التأملات . لقد كان
يدهشها أمر الأسير الذي اختطفته ليبقى إلى جانبها يؤنس
وحدها فلم تظفر منه بغير الأعراض والرغبة في الإفلات ،
أترى فقدت « شهريار » سلطانها على الرجال ! هي التي
من بين نساء الوجود قد فازت وحدها باخضاع
ذلك الجبار « شهريار » ! تعجز اليوم ويعجز

جمالها وذكائها عن اجتذاب مخلوق ساذج مسكين كهذا
السجين ذى المعطف الأسود وعصا السمك ! أتراها قد
هرمت وهى التى لا عمر لها ولا ينبغي لها أن تهرم ! أهو
عجز وقصور منها حقاً . أم هو حق وتقصير من ذلك
المخلوق الذى لم يستطع تقدير كنوزها وآلائها ؟ لكن
أيمان أن تهم بالحق وقلة التقدير رجلا كتب عنها كتاباً
فجعلها فيه صنو « إيزيس » و « يديبا » ! لكن ما باله إذ
رآها وقابلها الليلة وجها لوجه لم يلفظ كلمة تقدير ولم يلق
إليها بكلام عميق ولم تسمع منه إلا هراء ينم عن
استخفاف . أهى التى كانت تدعى إلى صيد السمك من
الغدران ! أم هى التى كانت جديرة أن يدعوها إلى
زيارة هياكل الفكر الأنسانى الخالدة على الزمان ! حقاً
إنها لا تفهم من أمره شيئاً . هى التى تفهم الرجال كامرأة
عاشت ألف عام بين الرجال ! لا تستطيع أن تفهم هذا
الرجل المعقد ! لكن لما ذا لا تريد أن تعتقد أنها قد
هرمت قليلاً وأن شعرات قد ابيضت فى رأسها الأسود الجميل

وإن المرأة إذا هرمت كان عليها هي أن تترضى الرجال
وأن تسيرهم وأن تعنى بالتأفة من رغباتهم . فإن استبقاء
الرجال فن يجب أن تحذقه المرأة إذا علت بها السن .
وضاعت امرأة اعتمدت على سحرها الماضى فجلست
بلا حراك تنتظر أن يجثو عند قدميها الرجال ! إن لكل سن
طرائقها ووسائلها . ولكل وقت أدوات صيده ١٤

لقد صدق صديقها الحميم طه حسين إذ نصح لها فى
رسالته ألا تهمل رغبات توفيق التأفة وأن تتبعه حاملة
مثله . السنارة » إلى الجداول يصيدان السمك الصغير
وهى الملكة العظيمة ! وأن ترافقه إلى المقاهى الحفيرة إذا
طلبها هناك دون أن ترى حرجا فى ذلك أو تحقيراً من
شأن مقامها الجليل ! إنها قد نسيت أن للرجال صفائر
وحماقات لا يخلو منها رجال الفكر والعقل . فلتتبع
توفيقاً فى أطواره واتر منه ما يكون ! نعم هذا هو الرأى
ولكن لماذا أبطأت به الجوارى ؟ وقد كاد الليل أن يولى .
هنا نهضت شهرزاد واستوت فى فراشها وشفقت بيدها

فجاء العبد فقالت :

— أين السجين ؟

— إنه فى أيدى الجوارى يا مولاتى ؟

— أما فرغن بعد من أمره . فليسر عن به إلى !

— مولاتى !

— ما بك ؟ وما هذا التقطيب والغضب على وجهك !

— هذا السجين ، قد بلغنا من أمره كما تعلمين خبر

عظيم . فهو قد وصفنا فى كتاب له وصفاً قبيحاً ، واقترى علينا

اقتراء أثماً ، وكلنا هنا يطلب رأسه . وقد أقسم « الجلاد »

أن يتولى الجزاء بنفسه . وقد تلقى أمراً من الملك « شهربار ،

بذلك و « الوزير ، و « الساحر ، و « زاهدة ،

و « أبو ميسور » ...

— ليس يعنينى من أمرهم شيء . كل أولئك أشباح

تعيش فى الماضى ، وقد جاءت إذ سمعت بسجن توفيق الحكيم

كى تثير قضية تتعلق بالماضى . ولكنهم جميعاً غير قديرين

على الحياة فى الحاضر والكلام فى الحاضر . لقد دخل

على « شهربار » منذ لحظة فقرحت به كآنى عثرت على
كنز مفقود . لكن والأسفاه . سرعان ما تبين لى أنه
لا يعرفنى ولا يعرف عن حياتى اليوم شيئاً . فهو شبح
وذكرى . وهو غير قدير أن يعيش خارج المائة
والعشرين صفحة التى كتبها توفيق الحكيم . لقد يئست
منه بعد قليل . وهو أيضا قد تركنى دون أن يعرفنى كأنه
نائم أو مجنون ...

— إنه يا مولاتى مع الوزير قمر والجلاد والساحر
وأبى ميسور وزاهدة ...

— نعم مع بقية الأشباح . إنهم يستطيعون أن يفهم
بعضهم بعضاً .. إياك أيها العبد أن تجلس إليهم !
— إنى يا مولاتى أعيش معك اليوم فى الحاضر ..
ولكنى أحياناً ...

— كفى ! إنى لا أطيق الكلام فى الماضى طويلاً .
إنى أعظم من أن أحبس فى عصر واحد . إنى لكل
العصور ..

— مولاتى ؟

— ماذا تريد ؟

— إن لم نسلم إليهم ذلك السجين فانهم لن يفارقونا .

— إنها لمحنة ! وما رأى ؟

— ماذا يهمنا من أمر هذا السجين ، فلنقذف به إليهم

— لم يخب ظنى ، إن نصفك معهم ونصفك معى .

— إنما أردت يامولاتى أن أريحك من وجودهم !

— لن أقطع برأى حتى أستشير صديقالى . اذهب

— الآن عنى !

وسكنت شهرزاد قليلا وأطرقت مليا . وإذا الباب

يضرب عليها، فرفعت رأسها وأذنت فى الدخول . ففتح

الباب ودخلت الفتيات الثلاث يقدن طه حسين فى رداء

جميل واسع الأعطاف لو لم يكن مزين الحواشى بالذهب

والفضة والآلىء النادرة لحسبته ذلك الرداء الجامعى الذى

يرتديه العمداء فى الحفلات الرسمية الكبرى . وقد غدا

الدكتور حليقا وسيا تطمع في رضاه الجميلات . فتقدمت
به إحدى الفتيات وقالت .

— ها هوذا يا مولاتى قد هياأناه !

نظرت شهرزاد ، ثم أنعمت النظر ، ثم قالت كالمخاطبة
لنفسها :

— مستحيل ماذا فعلتن أيتها الجوارى ...

هنا رأى طه حسين أن من واجبه أن يلقي الضوء على
هذا الموقف الغامض وأن يرد الأمر إلى نصابه ، فقال :

— مولاتى ! إنى لست توفيق الحكيم .

— طبعا .

— إنى ...

ولم تطق شهرزاد صبرا فقالت فى حدة :

— أو تجرؤ يا هذا على الدخول على بهذا التويه ..

— مولاتى عفوا .. إنى لست فى حاجة الى التويه ..

كما تعلمين ..

— وأين إذن توفيق الحكيم : وما هذا الزى الذى عليك

— سلى جواريك !

فالتفتت شهرزاد إلى الفتيات ونظرت إليهن نظرة المستفسر . فقالت إحداهن فى لهجة بريئة صادقة :

— أليس هو هذا الذى تسلمناه من مولاتى .

— مطلقا . أيها الفتيات :

فالتفت طه حسين إلى الجوارى وقال فى انتصار :

— لقد بُحَّ صوتى من القول أن فى الأمر خطأ .

ولكنهن مضين يصنعن بى مالا يصنع ! . وعندئذ لم يسع الفتيات الا أن يعترفن بما حدث من هرب توفيق الحكيم والعثور على هذا الذى حسبوه الهارب . ولم يسع طه حسين الا أن يقص قصته وما وقع له بالتام والكمال من وقت خرج من داره الى أن مثل بين يدى شهرزاد فى هذه الهيئة والزى . وختم حديثه قائلا للملكة :

— أرايت يامولاتى ! لقد صدق المثل العامى « من

خرج من داره قل مقداره » .

ولكنى مع ذلك راض بما كتب لى، مغتبط برؤيتك
فى النهاية على كل حال !

فضحكت شهر زاد وقالت فى رقة :

— أيتها الصديق العزيز ! إنى آسفة لما وقع لك . وآسفة
أنى لم أبعث اليك رسولا يحضرك إلى بدلا من الكتابة
اليك . ولكنك قد حصلت عندى آخر الأمر . وإنى الآن
فى حاجة شديدة اليك

— إنى خادمك ورهين أمرك .

— أولا أين هرب واختفى توفيق الحكيم هذا ؟ أريد
رأىك فى ذلك . ؟

— أرى ياسيدتى أن تطلقى رجالك فى أثره يبحثون
عنه .

— أين ؟ !

— أرى أن يبحثوا عنه عند شواطئ البحار والأنهار
والجداول والغدران كافة . فأن السمك وحده الآن هو
الذى يعرف مقره .

— نعم الفكرة . هنالك أمر آخر شديد الخطر أطلب رأيك فيه : أتذكر في رسالتي أنى حدثتك عن أشباح أشخاص توفيق الحكيم . إنهم هنا الآن يلحون فى طلب رأسه . ولا أراهم يبرحون حتى يسلم اليهم . أسلمه لهم أم أمنعه . . . ؟

— مولاتى الالهذا ولا ذاك ..

— عجباً ! ماذا أصنع إذن .

— لا إعدام بغير محاكمة . ولا محاكمة بغير قضية .

فاشترطى عليهم ألا تسلميه إلا ، مام محكمة يدلون أمامها بما يهتمونه به وما يريدون من أجله رأسه .

— نعم الرأى . نعم الرأى . إن آراءك فى نضجها

كآرائى فى سن الشباب الأول . لكأنى بك قد نقلتها عنى واستوحيتها منى .

— كل أفكارى وآرائى مستمدة من ضوئك ياسيدتى !

— بقى أمر واحد : من هو القاضى الذى يحاكم

صديقنا .

هنا يفكر طه حسين ملياً ويقلب في ذهنه الأسماء .
ثم لا يلبث أن يصيح صيحة الفرح والظفر :
— وجدته يامولاتي وجدته . إنه القاضي الذي لا يرد
حكمه . وهو بعد ليس بالمجهول من المتهم فقد ردد اسمه
كثيراً في كتبه وذكره على أوضاع شتى في كتاباته . .
— من هو ؟ من هو هذا القاضي ؟
— الزمن .

محنة زونان الحكيم

وقد غمرني في محضر شهرزاد من الجمال والسحر ومن
الظرف والعطف ، ومن رشاقة الحركة وعذوبة الحديث ،
ما أنساني صنيع هؤلاء الجوارى الماكرات ، وكاد يردني
إلى الأمن والهدوء وإلى الدعة واللذة ، لولا أن خاطراً
ملحاً كان يتردد عليّ من حين إلى حين فيذهلني بعض
الشيء عما كنت أجد من نعيم ، وكأن شهرزاد قد أحست هذا
فهي تدق في ظرف يدا ييد، وإذا الفتاة التي أدخلتنا عليها ،

فى الزىارة الأولى قد أقلت خففة ظريفة كعاداتها ، فأنحت
ثم استوت ، وإذا شهر زاد تسألها ما صنع صاحب الأستاذ.
قلت الفتاة فى صوت ساحر: هو هنا يامولاتى منذ ساعة ،
قلق النفس مضطرب البال ، لا يصدق ما أوكد له من
مكان الأستاذ بين يديك ، ولا يريد أن يطمئن حتى يراه .
قلت شهر زاد فأدخله . ثم التفتت إلى الفتاة تنصرف ،
وقالت أظنك تستطيع الآن أن تخلص لى . وهممت أن
أجيبها لولا أن عبدها الأسود أقبل مسرعاً فقطع علينا
الحديث وهو يقول : أدركى أسيرك يامولاتى فقد أشرف
على الخطر ودنا من البوار . قالت شهر زاد فى هدوء يملؤه
الدل والتهيه ؛ وما ذاك ؟ قال الأسود اجتمعت على سجنه
الأشباح ياسيدتى ، ولولا أنى وكلت بهذا السجين أشد
من فى القصر من أبناء أبى قوة وأيداً ، وأصلبهم عوداً
وأقدرهم على المقاومة وأصبرهم على الجهاد ، لا قتم السجن
عليه اقتحاماً ، ومع ذلك فالأشباح ملحة فى الهجوم تصطنع
فيه فنوناً من العنف الصريح والمكر المغرى ، ولست آمن

أن تظهر على الجند ، فإن كانت لك حاجة في أسيرك
فأسرعى إليه ، فلن يرد الأشباح عن سجنه إلا مرآك

و كنت قد نسيت توفيق الحكيم وشغلت عنه بما لقيت
من شدة أول الأمر ، وبما كنت أنعم فيه من لين ذلك
الوقت ، فلما سمعت ذكره وعرفت تعرضه للخطر عادت إليهِ
نفسى ، فسألت الأسود : وهل ظفرت به ؟ وكيف وجدتموه ؟
قال الأسود وهو يقاوم الضحك مخافة أن يُحفظ مولاته :
أخذناه ياسيدى وأنفذنا فيه قوانين القصر . قالت شهرزاد
أو كنت تظن أن سذاجته تغلب مكرى ؟ أو تحسب أن
الخروج من هذا القصر ميسر لمن دخله ؟ وإذن فأى أمن
لشهرزاد وأى سلطان بقى لها ، وأى سحر هذا الذى يحيط
بالقصر إذا أتيح لرجل ساذج كتوفيق أن يفر من أهله
وينفذ من أبوابه كما يريد ؟ قلت : فأنى لم أفر من أهله ياسيدتى ،
ولكنى دخلت عليهم القصر ولم يشعروا بدخولى ، وانسبت
فيه انسياب الحية ولم يعرفوا مكانى منه . قالت وهى تضحك :
فإن هذه قصة أخرى لعلها أشد تعقيداً مما تظن ، أوافق

أنت بأن رسل ليسوا هم الذين أغروك بالخروج في طلب القصر
ودلوك على طريقه وانتهوا بك وبصاحبك إلى هذا الفجوة التي
انسللتا منها؟ ولكن في الأمر تقصيرا من غير شك، ثم
التفتت إلى الأسود قائلة: والفتيات ماذا صنعتم بهن؟ قال
أنفذت فيهن قوانين القصر يامولاتي، وهن الآن مشدودات
من شعورهن إلى السقف في غرفة العذاب تصب عليهن السياط
صباً. قلت مأخوذاً: أو تفعلون هذا بهؤلاء الجوارى الحسان!
قالت شهرزاد كأن قلبك قد رق لهن، وكأنك نسيت أنهن
أعرضن عما كان يجب من إنفاذ أمرى وفرغن للهوهن، وما
ينبغي لمن اتصل بشهرزاد أن يشغل عنها بنفسه، فكيف بهؤلاء
الأماء اللاتي لا وجود لهن إلا مستمد منى. قلت مستعطفاً:
رفقا بهن ياسيدي، فقد كن ضعافاً وقد كن أغراراً، ظن وراء
الأكمة شيئاً فلم يجدن إلا هواء وغروراً. قالت شهرزاد:
وإعراضاً عنهن وفراراً منهن. قلت: فأني شافع فيهن. قالت
سنرى في أمرهن، ولكن لنسرع إلى صديقنا الأسير
فما ينبغي أن تستأثر به هذه الأشباح الضارية.

ولا بد من أن أعيد عليك قصة صديقنا الأسير من
بدنها فأنك لم تعرف إلا آخرها : هو الآن محصور في سجنه
مغلوب على أمره، تتراءى له الأشباح موعدة منذرة، ولكنها
لا تبلغه لمكان هؤلاء الجنود السود، وهو كلما رآها
اضطرب من رأسه إلى قدميه وجرت الرعدة في بدنه كله،
فأسنانه تصطك وفرائصه ترتعد وصوته يخرج من فيه
هائلا مبهما لا يفهم منه إلا شيء واحد وهو أنه جزع
يستنجد ويستغيث . فكيف انتهى إلى هذا السجن ؟ عرفنا
ذلك من أمره فيما بعد، فلا تسل عن ضحكنا منه ولا تسل
عن ضحكه من نفسه، وما أظن إلا أن هذه القصة التي
وقعت له في دهليز من دهاليز القصر المسحور ستملا
ما بقي من حياته الطويلة إن شاء الله ضحكا وفرقا . سيضحك
منها إذا لقي الناس وأمن الاعتداء عليه، وسيفرق منها
إذا خلا إلى نفسه وأشفق أن تنجم له الأشباح من الأرض
أو تهبط عليه من السقف أو تنشق له عنها الجدران .
كان إذن يضرب في دهاليز القصر وقد اتخذ معطفه وقاء

من كل شر ، لا يخرج من دهليز إلا دفع إلى دهليز ، ولا
يفصل عن بهو إلا ألقى إلى بهو ، حتى ضاقت به السبل ،
وسدت عليه الطرق ، وكان قد منى نفسه بالآفلات وزين
لها النجاة ، وكان قد أخذ ينعم باول الانتصار ويرى أنه
قد خلاص من هؤلاء الفتيات الحسان وأمن عبثن بحسمه
وعقله معاً . ولكنه يمضى فى الأبهاء ويدور فى الدهاليز
دون أن يجد مخرجاً إلى النور حتى طال عليه الوقت
واشتد عليه الكرب وثقلت عليه المحنة ، وعظم فى نفسه
البلاء . وإنه لفيا هو فيه من السعى الذى لا يكل والدوران
الذى لا يجدى ، وإذا بصيص من نور ضئيل يخلص اليه
من بعيد فيخيل إليه أنه قد وجد خيط اريان ، ويرى
نفسه غريقاً قد أتاحت له خشبة النجاة فهو يتعلق إلى هذه
الخشبة بيديه ورجليه وأسنانه . وهو يتبع هذا النور
الضئيل وقد عقد به أمله كله ، ووصل به نفسه كلها . وهو
يجمع مابقى له من قوة ، ويجرى فى أثر هذا النور حتى
ينتهى إلى فرجة ضيقة فى الجدار فيدخل نفسه فيها ويجاهد

ويحتال حتى ينفذ إلى ما وراء الجدار ، وإذا هو في فضاء واسع يضطرب فيه نسيم بارد قوى يرد إليه بعض ما فقد من قوته . وكان خليقاً وقد خرج إلى الفضاء الطلق خائر العزم منهوك القوى أن يتهالك على الأرض ليستريح ، ولكنه يمضى أمامه وقد أسلم ساقيه للريح وأقسم في دخيلة نفسه لا يطمئن ولا يستقر حتى يبعد عن هذا القصر البغيض . والفضاء أمامه واسع عريض . قد اختلطت أرجاؤه وأطبقت عليه ظلمة كثيفة يخرقها بين حين وحين هذا النور الضئيل ، فيتبعه صاحبنا جاداً في ذلك كل الجد ، وما يشك في أن قدرة الله قد أرسلت إليه هذا الشعاع فرجا من حرج ، ومخلصاً من ضيق ، ولكنه يقف فجأة في شيء من الدهول والدهش كأنه قد أحس شيئاً من طريق السمع أو من طريق البصر . فإذا مضت عليه لحظات قصار زال عن نفسه الشك وفارقها الريب ، فهو يحس شيئاً من طريق السمع والبصر معاً . يرى بناء متواضعاً قد قام منه غير بعيد ، أو يخیل إليه أن شخصاً ما ثلاً قريباً

من هذا البناء ، ويسمع صوتاً تحمله إليه الريح لا يفهمه أول
الأمرو ولا يثبته، ولكنه يصغى إليه ثم يدنو منه فإذا هو يسمع
ويثبت ويفهم ويعي، وإذا هو دهش قد كاد يفقده الدهش
رشده، وذاهل قد كاد يغلبه الذهول على ما بقي له من صواب، إنه
يسمع صوتاً عربياً يتغنى غناء عربياً ، فإذا أطال الأصغاء،
خلص إليه من هذا الغناء شعر عربى فصيح ، هنالك ينكر
الرجل نفسه، ويتهم حسه، ولا يكاد يشك فى أن أطيافاً من
هذه الأطياف التى تملأ الجو قد مكثت به واحتالت عليه،
حتى أوقعته فى شر مما فر منه. ذلك أنه فى فرنسا فى إقليم سفوا
العليا، فإذا أتيح له أن يسمع صوتاً يتغنى فى ظلمة الليل فأقصى
ما يمكن أن يكون هذا الصوت فرنسياً يتغنى شعراً فرنسياً.
ولكن ماذا؟ إنه ليس مجنوناً ولا مختلط العقل، فهو يسمع غناء،
وغناء عربياً فصيحاً يملؤ عليه الجو من حوله ويدعوه، نعم
يدعوه ويلح عليه فى الدعاء والاعتراف، إنه يتبين الألفاظ التى
يسمعها، إنه يحفظها، إنه يعيدها على نفسه، إنها تقع من
قلبه الجاف المحترق مواقع الماء من ذى الغلة الصادى. إنها

ملأت قلبه ونفسه ، إنها ملكت عليه أمره ، إنها قد استهوته
استهواء ، واستغوته استغواء ، إن هذا الغناء يصل إلى أبيات
من الشعر لا يكاد ينتهى إليه البيت منها حتى يعيده كما سمعه
كأنه صبي يعيد على معلمه ما يلقى عليه من الكلام :
أهلاً وسهلاً بخائف يمشى

مستوحش هارب من الوحش
نعم أنا والله هذا القادم ، إني لأمشى فى هذا الفضاء
العريض مستوحشاً ، وما هو لاء الفتيات اللاتي هربت منهن
الا وحشا من وحش الجن لا من وحش الانس .
فر من القصر وهو يجهل ما

دبر من حيلة ومن غش
نعم والله ، لقد فررت من ذلك القصر البغيض وما أدرى
ماذا دبر لى كيد شهرزاد ومكر طه حسين .
أقبل فعندى لك الأمان وما

يدنيك فوراً من أرض سالنش
لييك لبيك ، هأنذا آمن من الخوف ، فاحملنى الى

سالنش، الى فندق مون جولى، فقد بعدت عنه وقد اشتقت
اليه، إني لمتعب، إني لمسكدود، ما أشد حاجتى الى الراحة.

ان شئت نو ما فعندنا سرر وثيرة فرشها من القش
من القش أو من الحطب أو من الخشب أو من الحجر، النوم،
النوم إني أريد أن أنام لأفلى من هذه الأحلام المروعة .
أو شئت شربا فان ييرتنا تملأ رأس النديم بالوش
لقد نضب ريقى ويبس حلقى، وجف لسانى حتى كأنه
الحطب، بيرة سالنش فى تلك القهوة الصغيرة، قهوة الجبل
الأبيض التى كنت أخلو فيها الى نفسى والى القدرح
والقرطاس سبع ساعات كاملة .

أو شئت أكلا فان جبتنا لا يأتلى دودها من النغش
كامبير، روكفور، روبلوشون، جبنه مصر، يجب أن
أكون نائما فما ينبغى أن يكون ما أسمع وما أحس الا حلما .
والحب عندى كما اشتيت له بيض عظام قرية الفقش
هنا يمتلىء فم صاحبنا بضحك عريض متهلل وتنطلق
ساقاه فى الريح، لقد أيقظه هذا البيت ونبيه، لقد عزف

هذا الصوت، إنه صديقه طه حسين قد أقبل يخلصه وينجيه،
إن هذا البيت يذكره بذلك السؤال الذى ألقاه ذات ليلة
على المائدة حين قدم له لون من الطعام يسميه الفرنسيون
بئر الحب، وأراد أن يسأل أيدخل البيض فى تكوين هذا
اللون . فقال أفى الحب بيض . فضحكت الجماعة ، وأجابه
صديقه طه حسين نعم فيه بيض يفقس عن فرّوج، هو إذن
طه حسين قد طالت عليه غيبتى فأقبل يبحث عني ويستنقذنى .
أصحابنا كلهم ذوو بلبه تأمن منهم مرارة القفش
إنه لطفه حسين ما أشك فى ذلك ، إنه يطمئنى ويهدى
روعى ، وينبئنى بأنه لن يعبت بى ولن يتندر على كلما
هفوت فى حركة أو حديث .

حياتنا لو علمت ناعمة لم يلحقها قط عاهل الحبش
الحبش ! وما خطب النجاشى فى هذه القصة ؟ لقد علمت
أنه كان فى لندرة، ثم ذهب منها الى جنيف، ثم عاد منها الى
لندرة . فما لى وللنجاشى ، ألا أزال مختلط العقل ، أنا ثم أنا
كاليقظان ! أيقظان أنا كالنائم .

أقل ما في أقلها سمك يسبح في بركة من المش
سمك! بركة! مش! فقد أتبع لي إذن كل ما أنا محتاج إليه .
أستطيع أن أصيد وأستطيع أن أسبح وأستطيع أن أرتوى
أقبل أعنا على الهموم فقد ضقنا ذراعا بالكنس والرش
كلا . كلا . لست يقظان بل أنا نائم . لست نائما بل
أنا يقظان . لست عاقلا بل أنا مجنون ، لست مجنونا بل أنا
عقل . ماذا أسمع؟ الكنس والرش ، إن طه حسين لا يكنس
ولا يرش ، ولكنه يقرأ المتنبي ويتحدث عن شهرزاد .
أين أنا ! ماذا دهاني ! ماذا أصابني ! ثم تنحدر من عينيه
دموع غلاظ ساخنة ، ولكن يد أضخمة عريضة ثقيلة تنقض
على كتفه ، وصوتا غليظا أجش يقول له في نبرات مرتعشة
يرتعش لها الفضاء من حوله ويرتعد لها جسمه النحيف .
أهون عليك فما بك من بأس . هنالك يصيح الأسير الهارب
من أنت ؟ ألسنت طه حسين ؟ فيجيب الصوت الغليظ
الأجش ، كلا يا سيدي ، ولكني رئيس الشرطة في القصر
المسحور . علمت بفرارك ولم أرد أن آخذك أخذاً عنيفاً ،

فمددت لك أسباب الأمل وزينت لك طريق الهرب حتى انتهيت إلى ما كان يجب أن تنتهى إليه من الأذعان لسلطان شهرزاد . والأمور كلها تجرى فى هذا القصر المسحور على نحو من هذه الدعابة الحرة التى تظهر قاسية بعض القسوة ولكنها لينة كل اللين . فلا تخف ولا تحزن واستقبل أمرك راضيا مطمئنا فما أرى إلا أنه سينتهى إلى ما تحب وترضى . قال ذلك وقاد الأسير إلى هذا البناء المتواضع ، حتى إذا تجاوز الباب نظر توفيق فاذا سرير عليه وسائد من القش قد هيء له كأنما يدعو له ليسترىح . قال توفيق وقد اختنق صوته بالبكاء . ماذا تريدون أن تصنعوا بى ؟ قال رئيس الشرطة : نريد أن نريحك شيئا فقد أجهدك الهرب ، ونريد أن نطعمك فقد أضناك الجوع ، ونريد أن نسقيك فقد ألح عليك الظمأ ، ونريد أن نرضيك ونرفه عليك فنعود بك إلى غدير لا يفلت منك سمكه . ثم نريد بعد هذا كله أن نردك إلى مولانا شهرزاد ليرى فيك رأيها ، وما أظن إلا أنها ستدفعك إلى فتيات أخريات ملاح أو

قباح، يصلح من أمرك ثم يعدنك إليها خليقا أن تكون لها سميرا، فأن شهرزاد إن قضت شيئا لم يرد قضاءها إلا الله، سمع توفيق هذا كله فخر على سرير القش لا يعي شيئا. أكان نائما؟ أكان مغشيا عليه؟ ولكنه أفاق بعد لحظة فاذا هو في مكان مظلم ينفذ إليه نور ضئيل شاحب تمنى بعد لحظة لو لم ينفذ إليه. فقد استطاع أن يتبين بفضل هذا النور وجوه ثلاث من الأماء السود كأقبح ما خلق الله وكأبشع ما عرف الناس، وقد انحنين عليه في رفق أيسر منه العنف، وابتسام أجمل منه العبوس، وهن يداعبنه بأصوات منكرة ويمسحن وجهه وعنقه بأيدي خشنة تجري في جسمه قشعريرة فظيعة وهو يصيح بهن: من أنتن! ما خطبكن! ماذا تردن مني! إليكن عنى. وكأن زجره لم يكن إلا إغراء فهن يقبلن عليه ويدنين منه، ويبسمن له عن أنياب كأنها أظفار السباع، ويمددن إليه شفاههن البشعة المنكرة يظهرن الرغبة في تقييله وهو يلتمس معطفه ليتقيهن به فلا يجده، وهو يهم أن ينهض ليعدو هاربا فلا

يستطيع لأنه يحس في رجله ثقل القيد ، وإذا هو يتقيهن
بالوسائد يحمي بها منهن وجهه ، ولكن أيديهن الخشنة تعمل
فيما بقي لمن من جسمه عملا ثقيلًا طويلًا مؤذيا ، حتى إذا
بلغ منه الجهد وأدركه الإعياء وكاد يعود إلى النوم أو
الإغماء تفرقن عنه لحظة ثم أقبلن عليه وقد ثاب إليه شيء
من رشد وقوة فأجلسنه مترفقات وقدمن إليه طعامه
وشرا به من جبن كالمبير ويرة سالنش . فيسرع إلى ما قدم
إليه من ذلك إسراع النهم الشره الذي أنهكه الجوع .
وما يكاد يفرغ من طعامه وشرا به ويسترد حظامن رشده
وصوابه ويبدأ التفكير في أمره كيف ابتداء ~~والنهم انتهى~~ ،
حتى يرى رئيس الشرطة مقبلا عليه ومن ورائه غلام
أسود نحيف ولكنه حسن الطاعة يحمل أدوات الصيد
كاملة . فاذا رأى توفيق أدوات الصيد عاد إليه نشاطه
وجرت على وجهه المتعب الشاحب ابتسامة حلوة فيها
سذاجة الطفل البريء ، وهم أن ينهض ولكن القيد يثقل
رجليه فيثوب إلى نفسه حزينا مبتثسا ، ولكن صاحب

الشرطة يدنو منه متلطفاً له فيحط عنه القيد ويخلي بينه وبين الحركة والنشاط

ونهب الأسير سعيداً بهذه الحرية التي ردت إلى رجله، مغتبطاً بهذه الزهرة التي تهباً له عند غدير يصطاد فيه السمك ، معجباً بذلك هذا الغلام الأسود النحيف الرشيق الذي لم ينس من أدوات الصيد ما تعود هو أن ينساه ، فاحتمل معه سلة رجة كأنه ينتظر أن يصطاد سمكا كثيراً ، ولكن توفيقاً عندما حلق في هذه السلة الرجة عاد إليه الشك وابتسم فيما بينه وبين نفسه والتفت إلى رئيس الشرطة قائلاً : « أجادون » أتم في أمر هذا الصيد أم لا يزال عبثكم بي متصلاً ؟ قال صاحب الشرطة : هلم ياسيدي ، ستري عندنا وتفهم ما لا تريد أن ترى ولا تفهم من أن حياة الناس مزاج من الجد والهزل لا تخلص لأحد الأمرين . قال توفيق وهو يتبع صاحب الشرطة والغلام يتبعه : ما رأيت كالليلة جداً وهزلاً ، وقسوة وليناً ، وعبثاً وفلسفة . ومضى صاحب الشرطة أمامه يتبعه توفيق والغلام

يتبعها ، حتى إذا مشوا دقائق وقف صاحب الشرطة عند باب ، ثم أدار في الباب مفتاحاً فانفتح له ثم دخل وقال لتوفيق اتبعني ياسيدى . فلم يكذ توفيق يخطو أمامه خطوات حتى ارتد مسرعاً وقد أشاح بوجهه وقد وضع يديه جميعاً على أنفه وفمه . قال صاحب الشرطة : اتبعني ياسيدى . قال توفيق الى أين ؟ قال صاحب الشرطة الى الصيد! قال توفيق أى صيد ؟ قل الى الموت : ماهذه الريح الكريهة القاتلة ؟ قال صاحب الشرطة وهو يضحك ! إنها الريح التى تحبها وتكلف بها ، ريح الجبن . قال توفيق : الجبن ! لقد أكلت منه حتى عفته ، فما الى وللجبن ، وأين يكون الجبن من الصيد ؟ قال صاحب الشرطة وهو يلح فى رفق : اتبعني ياسيدى واعلم أن المزاح فى قصر شهر زاد لا يكذب أبداً . أنسيت البيت الذى استهواك منذ حين :

أقل ما فى أقلها سمك

قال توفيق :

يسبح فى بركة من العسل

قال صاحب الشرطة، هذا كلام تقرأه في ديوان المتنبي
مع صديقك طه حسين . وكنت خليفاً أن تصطاد سمك السكر
واللوز من بركة العسل لو لم تخالف عن أمر شهر زاد . فأما وقد
فعلت، فستصطاد الفسيخ والرشال والسردين من بركة المش .
ثم أحس توفيق كأن قوة خفية تحمله وتدفعه الى الأمام،
ونظر فإذا هو قد شد الى كرسى من الخشب وأجلس الى
حوض طويل عريض يضطرب فيه سائل كدر كره
ويلعب فيه سمك مختلف الألوان والأحجام . وإذا أداة
الصيد فى يد توفيق، وإذا صاحب الشرطة يقول له فى أناة
وهدوء، تستطيع أن تلهو بالصيد حتى نأتيك . ثم ينصرف
عنه وينصرف عنه الغلام . ويهم توفيق أن ينهض
ليتبعها فلا يستطيع لأنه قد شد الى كرسيه شداً . على أن
محنته هذه لا تطول، فقد اصطاد سمكتين أو سمكات، وكان
كلما أخرج واحدة منها وهم أن يخلصها من السنارة وثبت
اليه هذه تعلق بأنفه ، وهذه تعلق بخده ، وهذه تعلق باحدى
أذنيه ، وإنه لفى هذا الكرب العظيم والعذاب الاليم ،

وإذا ضجيج يسمع من بعيد ثم يدنو شيئاً فشيئاً ثم يعظم حتى يملأ الجو ، وإذا صاحب الشرطة يقبل ومعه جماعة من الجند فيحملون توفيقاً وقد خارت قواه ويسعون به مسرعين الى حيث يلقونه إلقاء في هذه الحجرة التي تهاجمها الأشباح وتقوم دونها الجنود السود . وقد أدركته شهر زاد وأنامعها ولم يبق فيه إلا رفق من حياة ، فلم تكذ الملكة تدنو من السجن حتى انحاز عنه الأشباح ناحية وأقاموا مع ذلك ملحين يطلبون رأس هذا الأسير الذي أساء اليهم في أنفسهم وكرامتهم وأعراضهم ، ويقسمون لا يريمون حتى يبلغوا منه ما يريدون . قالت شهر زاد في صوت كأنه حديث الورد النضر ، إن كنت قد سمعت للورد النضر أو الذابل حديثاً ، عودوا الى مكانكم من القصر ، فسيكون لي معكم حديث ، ولكم على ألا تنصرفوا إلا راضين .

سمع الأشباح هذا الحديث الحلو من ذلك الصوت العذب ، فانصرفوا في أناقة وهدوء ، وهمت شهر زاد أن تعود

أدراجها ، ولكنى قلت لها مستعطفاً: والأسير ياسيدتى؟
ألم يأن لك أن ترديه الى ما أنت أهل له من العفو والفضل؟
قالت بلى ، ولكن بعد أن يأخذ الفتيات الحسان فيصلحن
من أمره ويعدنه الى كما أريد أن يكون . وما أتمت هذه
الجملة حتى أقبلت الفتيات الثلاث الحسان مستخديات يسعين
على استحياء ويخفضن رؤوسهن ذلاً وانكساراً . فأخذن
توفيقاً وأحطن به وانصرفن معه الى الحمام .

وتعود شهرزاد وأنا معها الى حيث كنا نأخذ فيما
كنا فيه من حديث المحاكمة لهذا الأسير البائس ، ونلتمس
الحيل والوسائل الى استنقاذه من هذه الأشباح الضارية
والأرواح الباغية ، وأنا أهون الأمر على شهرزاد وأؤكد
لها أن الزمان قاض عدل حازم لا يعرف الضعف ولا الظلم
الى نفسه سيلاً ، تتغير الأشياء من حوله وتتبدل الظروف
وتلتبس أخلاق الناس ، ويتنكر الأحياء للأحياء ، ويتنكر
الأموات للأموات والأحياء أيضاً ، تنقضى الدول وتقوم
مكانها دول أخرى ، وتثل العروش وتبنى مكانها عروش

أخرى، ينتظم أمر الناس ويضطرب، وتجتمع كلمتهم وتفرق،
والزمان كما هو ثابت مستقر لا يحول ولا يزول . وإن
توفيقاً لم يقدم على ما أقدم عليه حين كتب قصته إلا وهو
عالم بما يأتي وما يدع، مقدر لما سيلي من نقد، منتهى الاحتمال
ما سيتعرض له من تبعات، وهو قد ثبت للأحياء فليس
عليه خوف من الأموات . وإنا لفي هذا الحديث وإذا
شهر زاد تبعث من فيها الظريف الدقيق آهة الفرحة المرحّة
المبتهجة الطروب، فقد انفرجت الأستار الجانية عن توفيق
الحكيم وهو أجمل منظراً وأبهى طلعة مما يستطيع أصدقاؤه
أن يتصوروا مهما تذهب بهم الضنون .

والفتيات الثلاث الحسان يعلمن وحدهن ماذا أنفقن
من جهد وماذا سلكن من حيلة ليرددن توفيق الحكيم
إلى شهر زاد شاباً وسياً أنيقاً رائع الجمال . ومن يدرى
لعله يقص عليك سيرته معهن أو سيرتهن معه حين يكتب
مذكراته في يوم من الأيام .

في منزلة حمزة

ألقى توفيق الحكيم على المكان نظرة ذاهلة حيرى ،
وإذا عيناه تقعان على شهرزاد الجميلة بين وسائدها الحريرية
الموشاة بالذهب والفضة كأنها الشمس بين النجوم ، وقد
مثل بين يديها الدكتور طه حسين يتألق في ثوبه المزركش
ووجهه الومض كأنه القمر . فما تمالك الأسير أن صاح :
يا للعجب ! طه حسين هنا أيضاً ، حليقاً رشيقاً ، وسيماً
أنيقاً !..

شهرزاد — ينبغي لمن دنا مني أن يكون كذلك

طه — (فى خيلاء) أو يعيش الى جانب شهر زاد إلا
من مسته يد الجمال ؟ !

توفيق — كلام جميل ! ... لكن ما قولكما ...
شهر زاد — تكلم أيها العزيز !
توفيق — أمن الجمال ما صنع بي صاحب شرطتك
يا سيدتى العزيزة !

طه — (يضحك ضحكا قوياً) ماذا صنع بك ؟
توفيق — أتضحك ؟ !
طه — قصّ علينا ما جرى لك بالتّمام والكمال .
توفيق — وأنت قصّ علىّ بالتّمام والكمال سرّ هذا
الضحك الذى لا أفهم له معنى !

طه — أما أنا فأفهم له معنى بديعاً !
شهر زاد — (باسمّة) وأنا كذلك أفهم له معنى رائعاً !
طه — (مترنماً باسمّاً) :

إن شئت نوماً فعندنا سرر

وثيرة فرشها من القش

أوشئت شرباً فان ييرتنا

تملاً رأس النديم بالوش

أوشئت أكلاً فان جبتنا

لا يأتلى دودها من النغش

توفيق — (وهو كظيم) لا بأس !

شهر زاد — (تستطرد مترنمة باسمه) :

والحب عندى كما اشتيت له يضر عظام قريبة الفقش

حياتنا لو علت ناعمة لم يلحقها قط عاهل الحبش

أقل ما فى أقلها سمك يسبح فى بركة من المش

توفيق — (فى تقطيب) مرحى ! مرحى ! أرى أنكما

على علم واسع بكل ما وقع وكان ...

طه — أمر واحد لا ندرى عنه شيئاً .

شهر زاد — نعم أخبرنا ما فعلت بك الفتيات فى الحمام ؟

توفيق — فتياتك يا سيدتي خليعات وما كان من
أمرهن معي ليس مما يحسن ذكره في حضرة الملكات !
طه — (في ضحكة خبيثة) أكان الماء بارداً أم دافئاً ؟
توفيق — كان كل شيء بارداً ! استرحت الآن ؟
واستراحت جلالتها ؟ !

شهر زاد — واأسفاه ! إنك قد غضبت . ونحن
لأنحب لك أن تغضب ؟

توفيق — وماذا تحبين لي يا سيدتي ؟
شهر زاد — كل الخير .

توفيق — يالك من ملاك طاهر !
طه — (في خبث ومكر) أتتهكم على مولاتنا !
توفيق — سبحان الله في طبعك يادكتور ! انك تلقى
الكلمة فتخرج بها المواقف ! وتعقد المسائل ، ثم تقول
عني بعد ذلك إني رجل معقد !

طه — (في قوة) أنا صريح . ألقى كلمة الحق صريحة !

شهر زاد — نعم . وهو يلقيها فى جرأة ولا يخشى فيها
لومة لائم . ومن أجل ذلك أحبه .

توفيق — هنيئاً لك به ! وهنيئاً له بك !
شهر زاد — عجباً من العجب ! أدرك بين نبرات
صوتك ...

طه — وأنا أيضاً أدرك ...
توفيق — ماذا تدركان أيها الصاحبان المتفقان ؟
شهر زاد — نبرة تنم عن غيرة خفية إذ قلت إنى أحبه !
توفيق — دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذى لا تحذقه
غير المرأة !

طه — (صائحاً) استغفر الله ! استغفر الله !
شهر زاد — (لطه) دعه ! فان عداوته للمرأة سوف
تكلفه مالا يطيق .

طه — أريد أن ألقى كلمة حق صريحة ولكنى أخشى
أن يقول غنى ...

توفيق — (مسرعاً) إياك أن تلقى شيئاً . أهون على

نفسى أن ألقى انا فى بركة ، المش ، مرة أخرى من أن
تلقى أنت فى أمرى كلمة حق ، أو أن تلقى أمامى شهرزاد
كلاما فى الحب والغرام ..

شهرزاد — يا صديقى ! أود لو أفضيت الى بسر...
توفيق — ليس عندى سر .

شهرزاد — هذا الفتور والنفور بينى وبينك اليوم ؟
طه — ما من سر غير أنه مثل أغلب الشعراء وأهل
الفن يلفظ النعمة ثم يبكيها .

شهرزاد — (لتوفيق) أستبكينى غدا ؟ !
توفيق — (يصمت ثم يفكر قليلا وينظر الى شهرزاد
قليلا ويهمس) ربما ، إني من فصيلة لا تغرد الا فوق
أطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع !

شهرزاد — نعم ، هو مرض الشعراء والفنانين ! وان
شئت فهو ناموسهم الطبيعى . كم أرثي لأولئك الأشقياء
البائسين !

توفيق — يعجبني رثاؤك الحار هذا يا سيدتى ! ...
توقعين الناس فى البلاء ثم ترثين لحالهم !

شهر زاد — من أوقعت فى البلاء ؟

توفيق — لا أريد أن أبعث الماضى فأذكر لك شهر يار
وقرا وغيرهما ممن تتراءى لى أشباحهم اليوم نائرة على .
انما أريد أن أذكر لك رجلا ماثلا أمامك وبلاء لم يمض
على وقوعه غير قليل !

شهر زاد — أنت ؟

توفيق — نعم .

طه — أسمحان لى أن ألقى بكلمة حق صريحة ...

توفيق — أقسم بالله ثلاثاً إن نطق طه حسين بكلمة

حق أو باطل لأقذف بنفسى من هذه النافذة !

شهر زاد — (لطه) انتظر هنيهة يا عزيزى حتى تهدأ

نفس صديقنا !

طه — قد سكت .

شهر زاد — إنك تحسبني أنا التي أمرت بك صاحب
شرطتي ورجالي !

توفيق — وهل في هذا القصر أمر ناه سواك ؟

شهر زاد — إنك تبالغ في مقدار أمرى ونهى !

توفيق — يا للعجب ! أهذا صحيح ؟ !

شهر زاد — ثق أن هذا صحيح . وأناى لم أحب لك
كل ما صنع بك . ولو استطعت أن أمنعك وأدرا عنك
لفعلت . قلبي مفعم بالخير والحب . ولكن سلطاني قاصر...
توفيق — أیطلب الى أنا أن أصدق هذا الكلام ؟ أنت
الملكة العظيمة ؟ صاحبة الحول والطول ، في قصرك
هذا على الأقل .. !

شهر زاد — ثق أن الملوك بل الآلهة لا يستطيعون
دائما أن يصنعوا كل ما يشاءون !

توفيق — وما قيمة ذلك الآله الذي لا يستطيع أن
يصنع كل ما يشاء !

شهرزاد — وهل يتصور كون منظم يديره إله يستطيع
أن يعث بكل ما يشاء وقتما يشاء ؟ !

توفيق — (يلتفت الى طه) ما رأيك يا صديقي
الدكتور ؟

طه — عجباً لك ! الآن تطلب الى الكلام ؟ في هذا
الموضوع الشائك حيث يجب على السكوت !

توفيق — (لشهرزاد) أرجو منك يا سيدتي أن
تطلبي الى صديقك الجريء أن يلقي الآن كلمة حق صريحة !

طه — (لشهرزاد) كلا يا سيدتي العزيزة لا تفعل .
إني الآن عميد مسؤول . ولا شأن لي بالكلام في الأديان
والآلهة ، وحسبي ما حدث لي قديماً ...

شهرزاد — (لطه باسمه) يظهر أن صديقنا ليس ساذجاً
الى الحد الذي نظن .

طه — قلت لك إنه معقد .

توفيق — (لطه) أنا معقد لأنني طلبت رأيك في
موضوع دقيق .

طه — أسنعود اليه ؟ رجائي الخالص منك أن تترك
آلهة الأغريق والرومان وشأنهم !

توفيق — إن شهر زاد هي التي ذكرت الآلهة .
وما أردت منها الا أن تذكر لي صاحب الأمر الأعلى
في هذا القصر .

طه — نعم ، تكلمنا في شؤون هذا القصر .
شهر زاد — في هذا القصر وفي غير هذا القصر ، هنالك
سلطان أعلى يخضع له كل كائن حي وغير حي ، وكل خالق
وكل مخلوق .

توفيق — من هو هذا السلطان ؟
شهر زاد — القانون .

توفيق — وأي قانون هذا الذي أمر بتعذيبي اليوم ؟
شهر زاد — قانون القصر .

توفيق — ومن سن هذا القانون ؟
شهر زاد — أنا .

توفيق — وتخضعين له ؟

شهر زاد — لا مناص لي من الخضوع ، والا اختل
نظام القصر وحلت فيه الفوضى .

توفيق — يا للعجب ! أعرف حكومات شتى تسن
القوانين ولا تخضع لها ...

طه — حقاً . أذكر أن قوانين الجامعة ... (ثم يسكت
في الحال)

توفيق — تكلم !

طه — كلا . لا شيء ...

شهر زاد — (في سخرية) نعم إن البشر لهم هذا
الامتياز على الآلهة . فهم يستطيعون أن يعبثوا بالقوانين
التي يسنونها . أما الآلهة فلا يستطيعون مطلقاً أن يحدوا
قيد أنملة عن النظام الذي وضعوه والقانون الذي خلقوه !
توفيق — (في إعجاب) إنهم آلهة !

شهر زاد — وبعد ؟ أرايت يا عزيزي كيف أتى بريئة
بما ألم بك ، وأن قلبي لا يمكن أن يحل فيه غير الحب
والصفاء !

توفيق — وأن ما نزل بي هو من فعل القانون ؟
شهرزاد — هو ذاك .

توفيق — ربما كنت صادقة . إني دائماً يخيل إلى أن
العظمة في عليائها لا تعرف غير الصفاء . ولا أتصور خالقا
ينظر إلى مخلوقاته نظرة غير نظرة الصفاء العميق !
طه — هذا كلام طيب . وما دمنا في صدد الصفاء ، فما
يمنعنا الآن من أن نعمر قلوبنا به . وأن يقبل أحدنا على
الآخر باسم الشجر صادق الود .

شهرزاد — لا أحب إلى نفسي من هذا !
توفيق — وأنا أيضا . لا أحب إلى نفسي منه .
شهرزاد — (في فرح) حتى أنت !؟ ! لا أصدق
ما أسمع .

توفيق — يا للعجب ! ما ظنك بي ؟ أترينني بهذا
المقدار انسانا لا يعرف الود ؟ !
شهرزاد — كدت أظن هذا .
طه — أألقى كلمة حق صريحة ؟ !

توفيق — الق الآن ما شئت .

طه — إني أعرف توفيق الحكيم أحفظ الناس
للود ...

توفيق — أتهكم ؟

طه — (مأخوذاً) سبحان الله ! احكمى يا سيدتى
بالعدل ! أنا تهكمت الآن ؟ ؟

شهرزاد — على النقيض . إن فى صوتك صدقا
واخلاصا .

توفيق — (فى خجل وندم) إني آسف . لقد أسأت
الظن بصديقي . ولم أصدق ذلك القول منه .

شهرزاد — لو عرفت ما يصنع صديقك من أجلك .
إنه لم ينقطع عن التفكير معى فى التماس الحيل وتدير
الوسائل إلى استنقاذك من هذه الأشباح الئائرة عليك .
توفيق — أهو صنع هذا ؟

شهرزاد — إنه فعل أجمل من هذا . إنه رأى اقناع
الأشباح بالامتنال إلى حكم « الزمن » فيك . وهو واثق

أن كلمة هذا القاضي ستنصفك وتنصرك عليهم جميعا .
توفيق - وإذا لزم الزمن الصمت ولم يتكلم في
أمرى بخير أو بشر ؟

شهرزاد - إنه قد دعى إلى الكلام والحكم ، في مجلس
تحضره أنت ويحضره المطالبون برأسك والشهود العدول
وقد وعد بالكلام والحكم في الأمر .

توفيق - المطالبون برأسي !

شهرزاد - أو لا تعرف أنهم طلبوا رأسك !

توفيق - وما ذنب رأسي ! أخزاهم الله !

شهرزاد - ألم يخرجوا منه ! انهم يريدون تحطيم
المكان الذي خرجوا منه على تلك الصورة التي لا ترضيهم ؟

توفيق - وكيف يحطمونه !

شهرزاد - « الجلاد » قال إنه سيتولى ذلك فهي

مهنته .

توفيق - ذلك « الجلاد » العاقل !

شهرزاد - ان أمرك الآن رهن هذه « القضية »

طه — انها ستكون قضية « الفكر والأدب »
شهرزاد — ينبغي أن تستعد للدفاع عن نفسك .
توفيق — والقاضى . . .

شهرزاد — قلت لك هو « الزمن »
طه — أظنك لا تطمع فى أعدل منه !
توفيق — ومتى يوم المحاكمة ؟

شهرزاد — لم يحدد بعد . فقد رأى القاضى أن يبدأ
بدرس موضوع القضية . وقد طلب نسخة من « الكتاب »
فأرسلت إليه .

توفيق — كل هذا عجيب . وكل هذا لم يكن فى الحسبان .
أنا الذى جاء إلى جبال سافوا طلبا للراحة والهدوء ؟
طه — اصبر ! لئن حكم « الزمن » لك فأى انتصار
يكون وقتئذ للفكر وحرية الفكر ! وعند ذاك ننشر هذا
الحكم فى « الجهاد » و « الأهرام » معلنين انتهاء عهد
الظلام وابتداء عهد النور !

توفيق — وإذا حكم بتسليم رأسى إلى ذلك الجلاد

الذى باع سيفه لصاحب خان يحرق فيه القنب ويؤمه
أنصاف المجانين !

طه - كلا . إن إيماني كبير بحكمة هذا « القاضى »

توفيق - وأنا . . . مع الأسف . . .

ولم يتم توفيق الحكيم عبارته . فقد هبت فجأة
ريح عاصفة خلعت أستار النافذة ودخلت القاعة محملة
بغبار كثيف فى لون الرماد ، ألقتة على فرش « شهرزاد »
كما يلقي الشيء . ثم خرجت الريح من حيث جاءت وهدأ
المكان كأن شيئاً لم يحدث قط . ونظرت شهرزاد إلى
فرشها . فاذا الرماد عليه قد اتخذ هيئة الخطوط والحروف
وإذا هى رسالة تقرأ موجهة إليها . فطالعتها بأمعان ثم
صاحت :

- تلك رسالة من « الزمن » !

طه - (فى جد واهتمام) ماذا يقول فيها . ؟ .

شهرزاد - (فى كآبة) واحزنناه !

طه - (فى قلق) بحقك ماذا ؟

شهرزاد — إنه لا يريد أن يبقى المتهم طليقا . و يعلن
أنه سيأمر به فيحبس حبسا احتياطيا حتى يصدر فيه
الحكم .

توفيق — (لطمتهما) أ رأيت « حكمة » هذا القاضي
الذي جئتني به !

شهرزاد — صبرا ولا تخف !
طه — (لشهرزاد) وأين يكون الحبس ؟
شهرزاد — في مكان لا يعرفه غير « القاضي »
طه — وكيف يقاد المتهم إلى ذلك المكان ؟
شهرزاد — ربما أمر به الزوابع فاخططته !
توفيق — (صائحا) خطف آخر ! . حرت والله
وكدت أجن لأمر هذا الخطف . ألا يعرفون وسيلة أخرى
في هذا المكان غير هذه ! إذا طلبت للسامرة أخطف ،
وإذا طلبت للمحاكمة أخطف ! ألا نكون في أمريكادون
أن نعلم ؟ !

الفتن على توفيق ربه

قلت وقد نهضت متثاقلاً كئيباً، فهل تأذنين لي يا سيدتي
في أن أودعك الآن لا قالياً ولا سالياً . قالت في هذه
السرعة وما يعجلك . قلت فأن لي يا سيدتي أهلاً ما ينبغي
أن تطول عنهم غيبتى . قال توفيق في غضب وخبث وعملاً
ما ينبغي أن يطول إهمالك له . قلت في ضحك ورثاء هو
ذاك . قالت شهر زاد نعم هو ذاك، إن لأهلك عليك حقاً

وإن لعملك عليك حقاً ، فأما الذين ليس لهم في فرنسا أهل ولا عمل .. قال توفيق : فمن الممكن أن يخطفوا وأن يسجنوا وأن تلح عليهم المصائب وأن تفعل بهم الأفاعيل . قالت شهر زاد وقلت معها ضاحكا هو ذاك . قال توفيق في صوت محزون تكاد تخنقه العبرة : لست جاداً فيما تعزم عليه من الانصراف . قلت كل الجد ، وإنك لتعلم أني لا أستطيع البقاء ، ولست أدري فيم حرصك على بقائي . قال أما أنا فأعلم فيم حرصك على الانصراف ، إنما تريد أن تتركني وحيداً أقاسي ما أقاسي من الجهد وأحتمل ما أحتمل من الهم وألقي ما ألقى من العناء . قالت شهر زاد : شكراً لك ياسيدي ما أعرف أدباً أجمل من هذا الأدب ولا ظرفاً أرق من هذا الظرف . قال توفيق مرتبكا : سيدتي إنك لتسيميتي ما لا يسام ، ولست أفهم كيف تنتظرين الأدب والظرف من رجل مثلي قد صبت عليه المحن ، مخطوف يراد به الخطف ، وسجين يراد به السجن ، وأسير كان يطمع في حريته فاذا أقصى آماله سجن جديد لا يعرف أين يكون ولا كيف

تكون حاله فيه. قلت هون عليك فلست أرى بك بأساً، ولو كنت مكانك لنعمت بالساعة التي أنا فيها ولأرجأت التفكير في الخطر إلى وقت وقوع الخطر. قال فاني لا أعلم أقرب هذا الخطر أم بعيد، وإن ما أنا فيه الآن هو الخطر كل الخطر، أو تظني قد عرفت حقاً أين أنا وماذا يراد بي ومتى أناراجع الى ما كنت فيه. وتفضلت شهرزاد فشيعتني إلى باب غرفتها وهي تقول في صوتها المشرق الذي يغرى بالبقاء لا بالانصراف «إلى اللقاء» وإلى اللقاء القريب. أليس كذلك؟ وألقيت من دوننا الأستار وقد أسرع إلى صاحبي فالتفت إليه ضاحكاً وأنا أقول ما ينبغي أن يراني الناس ولا أن يراني أهلي في هذا الزى الغريب. قال صاحبي دهشاً: أي زى. وهممت أن أتكلم ولكن دهشى لم يكن أقل من دهش صاحبي حين نظرت فاذا أنا في زى القديم الذي دخلت به القصر من تلك الفجوة لا أعرف كيف عاد إلى ولا أذكر كيف نزعت عنى زينة الاستقبال. وأريد أن أسأل صاحبي دهشاً عن سر هذه الفتنة التي

لا أعرف أولها ولا أعرف آخرها فأنا أذكر كيف خلع على
ذلك الرداء الجميل الذى لقيت به شهرزاد ولا أعرف
كيف خلع عني ، وأعرف كيف خرجت من زنى القديم
منذ حين ولا أعرف كيف دخلت فيه الآن، ولكن الفتاة
الجميلة الرشيدة تدنو مني في دعاة وظرف وهي تقول :
لا بأس عليك يا سيدى فان الزى الذى تلقى به شهرزاد
لا ينبغي أن تلقى به أحداً غيرها ، ولا تنس أنك فى القصر
المسحور . وأبلغ الفندق بعد لحظات فاذا أنا أستقبل فى
كثير من التجهم وغير قليل من السخط والاعراض .
فلم تتعود أسرتى أن تفتقدنى فلا تجدنى، ولا أن ترانى أغيب
عنها دون أن أنبئها بعزمى على الغيبة وبالغرض الذى أنا
قاصد اليه والمكان الذى تستطيع أن تلمسنى فيه . وأنا
أريد أن أتحدث اليها بجلية الأمر وأنبئها بحقيقته ، وهذا
لسانى يتحرك فى فمى يريد أن يأخذ فى بدء الحديث
ولكنى أردته الى الصمت والسكون مشفقاً من العاقبة التى
لا شك فيها وهي ضحك الصييين وإغراقهما فى الضحك

وإشفاق زوجي وإلحاحها في الإشفاق مما أقول . هم جادون
في غضبهم ولو قصصت عليهم الأمر من أوله لأنكروه ،
ولرأوا أني أهزل حين يحدون وأتكلف حين يتبعون
طبيعتهم ، ولظن الصبيان أني أعلمهم ببعض هذا القصص
الذي كنت أعلمهما به أثناء الطفولة حين كانا يصدقان
كل ما كان يقال . ومن لي الآن بأن يصدق هذان
الصبيان — وهما ينكران ما يريان — وأن تصدق أمهما
قصة هذا القصر المسحور الذي يقوم عند قمة من قمم
الألب ، وقصة اختلافي إليه واشتراكي فيما يقع فيه من
الأحداث . كلا ما ينبغي أن أحدثهم بشيء من ذلك فلن
يزيدهم هذا الحديث إلا غضبا وإشفاقا ، ولعله يدفع هذين
الصبيين إلى أن يظنا بأيهما الظنون ويريا أنه من العجز
والقصور بحيث لا يستطيع أن يعلل غيبته بعلاما الصحيحة
الواضحة ، فهو يتكلف لها ما يتكلفه الأغرار من الحيل
والمعاذير . فأنا اذن أجتهد في المداورة وأحيد عن القصة
كلما دفعت إليها ، ولكن الأمر يتعقد فجأة فهم يسألونني



الكانب الكبير
توفيق الحكيم

عن صاحب توفيق ما خطبه، أو أين ذهب أو كيف مضى
على وجهه هكذا دون أن يودع قوماً كان معهم أو
ينبئهم بمذهبه أو يستأذنهم في الرحيل . فاذا زعمت لهم
أني لا أعرف من أمره شيئاً أنكروا هذا كل الإنكار
ولاموني عليه كل اللوم ، وزعموا أني مقصر في ذات
الصدق تلم به الأحداث فلا أحفل به ، وينزل به المكروه
فلا أسأل عنه ، ومن يدري لعله استجاب لهذه الخزوانة
التي تعرض له فخيل اليه أنه يستطيع أن يتسلق الجبل
في ساعة أو ساعات كما كان يقول، ولعله هم بذلك فضى
لطيته ثم اختلط عليه الأمر وتقطعت به الأسباب فهو
لا يدري كيف يعود . ولعله تعرض لأكثر من هذا من
الشرفوى الى قاع سحيق أو غمره هذا الثلج الذي تثيره
الريح في أعلى الجبل أو زلت به قدمه فهو صريع يستغيث
ولا يجد له مغيثاً . لا بد اذن من إنباء الفندق بأمره
ثم من إنباء الشرطة ثم من إرسال الرسل يلتمسونه في كل
وجه فهو لم يرتحل قاصداً الى الرحلة، وهذه غرفته كما تركها

ففيها أثاثه كما تركه ، وهم يهتمون أن ينبثوا الفندق والشرطة
كما أرادوا وأنا أحاول أن أردم عن ذلك وأكاد أنبئهم
بأمر التصحر المسحور ، ثم تصدى عن ذلك بقية من حياء
فأزعم لهم أن صاحبنا غريب الأطوار وأنه خليف أن يكون
قد عاد إلى باريس كما أقبل منها لم يفكر ولم يقدر ولم يتخذ
لذلك أهبة ولم ينبئ به أحداً ، والخير في أن ننتظر لعله أن
يعود إلينا أو لعل أنباءه أن تبلغنا بعد حين ، وأنا ألح في
وصف أطواره الغريبة وأحواله المختلطة وتصرفه في
الغربة على غير نظام حتى أكاد أقنعهم بأنه رجل شاذ كل
الشدوذ ، لا ينبغي أن ينتظر منه ما ينتظر من غيره من الناس ،
فاذا فرغت منهم بعد جهد ولأى ، أقبلت على العمل الذى
أهملته فأطلت إهماله ، وإذا أنا أمضى فيه وإذا هو ينسنى
توفيقا وأنباءه ويكاد ينسنى شهر زاد ، ولكنى أتلقى هذا
الكتاب على النحو الذى تعودت أن أتلقى عليه الكتب
في هذا الصيف .

سَيِّدِي سَهْرَزَاد

« من الحق ياسيدي أنك لم تكن قالياً ولا سالياً حين
وددعتني ، فقد طالت غيبتك عني وما أرى إلا أن النسيان
الآثم قد ضرب بينك وبينني أستاراً . ولولا بقية من الثقة
بك لعتبت عليك ، ولولا فضل من حسن الرأي فيك
لصدقت وشاية سجيننا البائس حين زعم لي أن شاعرك
ينسبك حتى شهر زاده ، وقد كنت أظن أني لم أنعم بالخلود
وحده وإنما نعمت به وبالشباب أيضاً ، ولكن شيئاً من
الشك قد أخذ يعترضني ويشغل بالي منذ أخذت أحس

غموضاً في بعض الأشياء واختلاطاً لبعض الأمور وقصوراً
عن تفسير ما يقع حولي من الخطوب فأنا لا أفهم فيم
طالت غيبتك وقد كنت أظن بك الحرص على لقائي ولا
أفهم فيم انقطعت أنباؤك وقد كنت أنتظر منك الحرص
على أن تتصل بينك وبينى الأسباب ، وهناك أمر آخر
لا أستطيع أن أفهمه ويسوءني حقاً أن أشعر بعجزى
عن فهمه وتاويله وهو أمر هذا السجين المسكين ، فقد
تركته عندي حائراً متولهاً لا يدري ماذا يريد ولا ماذا
يراد به ، وقد رجعت من تشييعك شديدة الرفق به والعطف
عليه أريد أن أواسيه أو أسليه أو أتوجع له كما
يقول الشاعر القديم ولكنى لم أكـد آخذ معه في الحديث
حتى أقبل الأسود ينبئني بأن ثلاثة نفر غلاظ شداد قد
أقبلوا يطلبونه وهم يريدونه على أن يتبعهم ، فإذا سمع ذلك
ضاق به أشد الضيق وامتنع عليه أشد الامتناع وجثا بين
يدي خائفاً وجلاً وعائداً لا ئذا يسألني أن أجيره ويتوسل
إلي في أن أحياه ، وهو يزعم لي أنه قد عرف القصر المسحور

أو عرف بعضه وبلا آلامه ومحنة أوبلا بعضها، وهو
يؤثر ما يعرف على ما لا يعرف ويفضل ما بلا على ما لم
يبل . وهو بعد هذا كله سعيد حين يشعر بأنه في كنف
وفي ظلي آمن أن ينتهي به المكروه إلى أكثر مما يطيق
أو أبعد مما يحتمل . ولست أخفي عليك أن قلبي قد رق له
وإن كان قلبي قد عاهدني على ألا يرق لأحد . فأخذت
أهدى من روعه وأهون الأمر عليه ثم طمعت وأطمعته
في أن أخرجه من هذه المحنة وأحميه من غوائل الزمان
وقلت للأسود اذهب فقل لهؤلاء النفر إن شهر زاد تجير
هذا الرجل وتحميه حتى من الزمان . وما سمع ذلك حتى
انكب على قدمي يقبلهما في حرارة وسعادة وفي أمل
ورضى ، وأنا قد دبرت أمري تديراً وأحكمته الأحكام
كله، وأزعمت أن أدخل هذا الأسير في ذلك البهو الحرام
من القصر . ذلك البهو الذي لا يدخله ولا يخلص إليه
أحد غيري ولا يستطيع الزمان أن يتجاوز ما يلقي على
بابه من الأستار، وإني لأدير الأمر في نفسي وأمر أسيري

بالنهوض فينهض مشرقاً مغتبطاً وأنا مطمئنة آمنة أن
يدخل هؤلاء النفر على قبل أن أمضى ما شرعت فيه ، فما
استطاع أحد قط أن يدخل على شهر زاد دون أن تأذن
له في الدخول، ولكن وا أسفاه واحسرتاه والوعتاه، هذه
النافذة تفتح ولست أدري كيف فتحت ولا من فتحها،
وهذا الفتى ينتزع من بين يدي ويعلق في الهواء تعليقاً
ويدفع فيه دفعاً بطيئاً وهو موله مدله قد قد صوابه وغاب عنه
رشده وهو يرسل إلى نظرات فيها التوسل والتضرع
والاستعطاف . وأنا واجهة أول الأمر ثم غاضبة لهذا
الحرم الذي اعتدى عليه ، ثم ثائرة لهذا الجوار الذي
استبيح وأنا أسعى إلى الأسير أريد أن أستنقذه من هذه
الأيدي الخفية التي تعلقه وتسعى به في الهواء ولكني
لا أكاد أبلغه حتى يدفع دفعة عنيفة وإذا هو قد خرج
من النافذة ومضى في الجمر كأنه السهم . هنالك رجعت
كثيلاً كاسفة البال تكاد تنحل قواي ، لولا أن قواي
لا تعرف الانحلال ، فأويت إلى مجلسي أو إلى مضجعي

الذى تعودت أن ترانى مستلقية عليه . وجعلت أفكر فى هذا الأمر الذى أعرف أوله ولا أقدر آخره . وأنت تعلم أن قد كانت بيننا وبين الزمان فى العهود القديمة جداً حرب ضروس كاد يمحقنا فيها محقاً لولا أننا انتصرنا عليه بالحيلة واضطررنا أن يمضى بينه وبيننا صلحاً قوامه أن له منا المسالمة ولنامنه الخلود ، فالزمان كما تعرف يأكل أبناءه جميعاً ، وقد كان يريد أن يأكلنا فيمن أكل ولكننا أفلتنا من شباكه وأكرهناه على أن يضمن لنا البقاء ونضمن له السلم . أقتراه قد ألغى ما بينه وما بيننا من صلح ونقض ما أعطى على نفسه من عهد ، أقترانا مضطرين إلى أن نعيد الحرب بيننا وبينه جذعة وأن ندك الأرض والسماء دكا فاما انتصر علينا فأكلنا فيمن يأكل ، وإما انتصرنا عليه فأثقلناه بالقيود والاغلال . أقتراه اتخذ هذه القضية التى لجأنا اليه فيها عن رأيك ومشورتك الى إفساد الأمر بينه وبيننا ورد الحياة كما كانت قبل أن يعرف القانون والنظام . أم ماذا ؟ ما هذا السجن الاحتياطى الذى يفرضه على رجل

مسكين من الناس ليس له حول ولا طول بازاء سلطان
الزمان الذى لا حد له ؟ مم يريد أن يحتاط ولمن يريد أن
يحتاط ؟ أفترانى فى حاجة إلى أن أثير إخوتى جميعا من
قصورهم حيث ينعمون كما كنت أنعم بالراحة الخالدة
والهدوء المتصل لذستأنف بين الزمان وبيننا صراعا كنا
نظن أنه مضى إلى حيث لا يعود ؟ لا تغضب ياسيدى
ولا يثقل عليك قولى ، لقد أحسست شيئا من الندم على
هذه الفرصة التى أتاحت لى الاتصال بك وبصاحبك ، فما
عرفت أننا نجنى من لقاء الناس أو الاتصال بهم خيرا .
وإني لأخشى أن يكون لقاءنا هذا الصيف نذيرا بشر
لأنقدر عواقبه ولا يقدر الزمان نفسه عواقبه . أسرع
إلى وأشر على فقد اختلط الأمر أمامى أشد الاختلاط
وويل للخالدين حين يدبرون أمرهم مع الهالكين .
ولكن لا بد مما ليس منه بد ، لقد بدئت القصة فيجب أن
تنتهى . ماذا كتبت إليك ؟ أخشى أن أكون قد آذيتك
وتحدثت إليك بما لا تحب ، ومع ذلك فما أردت بك شرا

ولا قصدت إلى ما تكره ، ولكنك تعلم من أمرنا غير قليل
فقد ألممت بسيرتنا في الزمان الأول ، وعرفت ماذا بلونا من
الناس وماذا بلا الناس منا . وما أيسر العلم بذلك لك
ولغيرك لو تقرأون ما تسمونه الأساطير .

معذرة اليك ياسيدى ، أسرع إلى وأشر على ، فما أرى
إلا أننا قد استقبلنا عهدا جديدا سنستأنف فيه حياتنا
الأولى فنتصل بالناس ويتصل الناس بنا فلتعن الأقدار
كلا على كل كما قال الخطيب العربى القديم . وإلى أن
أتلقاك أو أتلقى ردك على أرجو أن تقبل ياسيدى تحية
المحزونة المشوقة اليك .

شهرزاد

مُؤَلِّسَاتُ هَمَزَاتِ

سیدتی :

بعض هذا الفزع والجزع ، وبعض هذا اليأس والقنوط ، فقد روعني كتابك حقا وأذهلني عما كنت أضطرب فيه من شؤون الحياة . ولئن كنت عاتبة علي ياسيدتي لأنني قد غبت عنك فأطلت الغيبة ، فأني عاتب عليك لأنك قد روعتني فأسرفت في ترويعي دون أن يكون في الأمر ما يدعو الي بعض هذا الاضطراب، فضلا

عن كل هذا الاضطراب تنكرين غيبتى الطويلة ، فقد آمنت
لى ياسيدتى بأن لأهلى على حقاً وبأن لعملى على حقاً ،
أفتمنحين باليمن وتستردين بالشمال ؟ ولئن طالت غيبتى
عنك ياسيدتى فطالت عن رغبة ولاعن رضى ، ولكننا
نتشبه بك وبأترابك الخالدين ، فنرى أن لقوانين الحق
والواجب حرمة يجب أن لا نقسنا أن
تتجاوز حدود هذه القوانين أو أن نقسنا أن
ولقد زعمت لصديقنا الأسير البائس أن ملوك الناس
وأصحاب السلطان أقدر منك على تغيير ما يشرعون من
قوانين ، بل على انتهاك ما لهذه القوانين من حرمانات ، وأنت
على خلودك وسلطانك الذى لا حد له عاجزة عن تغيير
ما شرعت لنفسك وللقصر من قانون ، فنحن ياسيدتى
نحب هذه الرعاية للقانون المشروع ، ونكره الخروج عليه
ونضيق أشد الضيق بجور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود ،
ونرى أن نتشبه بكم ما استطعنا وأن نرى للحياة حقها
ففى حين يجب الوفاء ونخلص حين يجب الاخلاص

ونعمل حين يجب العمل ، لا تؤثر أنفسنا بالراحة ولا باللذة
ولا بقاء الأحياء إلا حين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب
هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بقاء الأحياء .
أفتذكرون على ياسيدتى ما تعرفين لنفسك وما تحبين أن
نحمد لك من السيرة والخصال . إني لأعلم أنكم معشر
الخالدين تهموننا نحن معشر الهالكين بكثير من الغرور
والكبرياء ، ترون أننا نتجاوز حدودنا ونخرج عن أطوارنا
حين نتأثركم ونسير سيركم ونحاول أن نرعى القوانين كما
ترعونها وكثرة الناس من حولنا يرون فينا رأيكم هذا ،
يتهموننا نحن العقلين بالفلسفة والشذوذ ، والفلسفة والشذوذ
عندهم يؤديان ما تؤدونه أنتم حين تذكرون الغرور
والكبرياء . فنحن حائرون ياسيدتى ، نتأثركم فتغضبون
علينا وتسخطون منا لأننا نطمع في غير مطمع ، ونتأثركم
فينقم الناس منا ويضيقون بنا لأننا نخرج عما يحبون
ويألفون . ولو أننا أعرضنا عن تقليدكم ومضيئنا مع الدهماء
فتبعنا الهوى وأطعنا الغريزة وخرجنا كما يخرجون على

قوانين الحياة والواجب لغضبتكم علينا ولأنكردتمونا
ولألحقتمونا بالعامه وصيبتكم علينا مثل ما تصبون عليهم
من المقت والازدراء . هل لك ياسيدتى فى أن تنينا نحن
المفكرين البائسين كيف نصنع لارضائكم فانا قد يئسنا
من إرضاء الناس ؟ أفترين أننا سنأس من إرضائكم أيضا
وسنتهى إلى ما انتهى إليه جماعه من الأفذاذ النادرين ،
ففى أن العقل خلىق أن يستغنى بنفسه وأن يتمرد
عليكم وعلى الناس جميعا ، وألا يحفل إلا بأن يرضى هو
وما أقل ما يرضى . لقد طالت غيبتى عنك ياسيدتى وما
أحببت ذلك ، ولوطاوعت نفسى لرغبت اليك فى أن
تخطفينى كما خطفت أسيرك البائس وفى أن تمسكينى عندك
وترصدى لى العيون والأحراس حتى لا أتجاوز بابا من
أبواب قصرك المسحور . ولكن ماذا أصنع ولأهلى على
حقوق ، ولعملى على حقوق ، وللذين أعرفهم والذين
لأعرفهم من الناس على حقوق . إنما حظى من لذة القرب
منك والاتصال بك حظ مقدور لم يتح لى إلا بين حين

و حين ، حين يأذن لى القانون الذى أخذت نفسى به أن
أنعم بهذه اللذة وأستمتع بهذه الحياة الحلوة . فاشفق على
ياسيدتى من هذا الحرمان وارحمينى من هذا القصور
ولا تهمينى بالأهال والتقصير ، ولا تسمعى فى وشاية مهما
يكن مصدرها وإن كان هو أسيرك العزيز عليك
وعلى معا .

على أنى أعود ياسيدتى فأستأذنك فى الرثاء لك
والإشفاق عليك ، وأعترف بأن الأمور قد دارت دورتها
وتكشفت عما لم أكن أتظره ولا أرجوه ، فكيف
أصدق أن شهر زاد الخالدة التى لاحد لقوتها وسلطانها
تحتاج إلى أن يرثى لها ويشفق عليها ضعيف هالك مثلى .
يظهر أن نظام الكون قد تغير أو أنه آخذ فى التغير .
ماذا تشكين فى قوتك وتنكرين سلطانك وذكاءك ، وأنت
التى تمنح أمثالنا القوة والسلطان والذكاء ، ولكن ماذا
أنكر وقد اتهمنا إلى عهد لا ينكر فيه شىء ولا يعرف
فيه شىء . قد اضطرب كله ، فالمطر ينهمر فى أوقات

الصحو ، والصحو يشرق في أوقات المطر ، وقد أصبح
الصيف شتاء والشتاء صيفا، وقد انقلبت الأوضاع واضطربت
النظم واختلط كل تقدير وتدبير، ولو أن لعقولنا بقية
من الثقة بنفسها لما شككت في أن الحياة قد عادت كشأنها يوم
خلق الله السموات والأرض ، وفي أن ما بلغنا اليه من رقى
قد استحال إلى تراجع وانحطاط . ولكن لتدبر أمرنا
يا سيدتى ولتستقبل ما يعرض لنا بشيء من الخزم والعزم
ومن الأناة والتفكير . ما هذا الخوف الذى يملأ نفسك
الخالدة ، وما إشفائك أن يكون الزمان قد عاد سيرته
الأولى وأراد أن يعيد الحرب بينكم وبينه جذعة ليا كلكم
كما يأكل أبناء الآخرين ؟ أكل هذا لأنه كره أن يموت
أسيرك قبل أن يأتى أجله فاستنقذه منك وضمن له حياته
ليت ما يريد الله أن يتمه فى هذا الكون ، فأنت يا سيدتى
كنت تريد أن تقتلى أسيرك لا أقل ولا أكثر ، فهل
فكرت فى معنى استنقاذه من الزمان وحفظه حتى لا يصل
إليه ، إنما معنى هذا الموت بل معنى هذا أبلغ من الموت

معناه الفناء الذى لا وجود معه ولا وجود بعده ، فأى
شئ نحن إذا لم يشملنا الزمان بحمايته ورعايته ، وأى شئ
أنتم إذا لم يشملكم الزمان بحمايته ورعايته ، لقد ضمن الزمان
لكم الخلود فى ذلك الصلح الذى أمضيتموه ، ولكنه لم
يضمن لكم تجاوز حدوده ولا الخروج عن سلطانه . وهل
تعرفين للزمان حدا وهل تعرفين لسلطانه غاية ينتهى
إليها ؟ . معذرة يا سيدتى ، لقد كنت أظن أنك أنت التى
ألهمت حكيم المعرة هذا البيت العجيب .

ولو طار جبريل بقية عمره

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر
أترين أبرع أو أروع من هذا فى تصوير سلطان
الدهر الذى لا ينتهى وملكه الذى لا حد له . لم يضمن
الزمان يا سيدتى فراقه ولا الخروج عن سلطانه ، وإنما
ضمن لكم صحبته أبداً وجعل الفرق بينكم وبيننا أننا نحن
نأكل وأنتم لا تأكلون ، فقد كنت تريدن يا سيدتى أن
تكبرى الزمان على أن يأكل توفيقاً قبل أن يتم نضجه .

أفتغضبين لأنه أرى أن يأكله نيئاً ؟ وما رأيك فيمن يريد
أن يكرهك على أن تأكل من الألوان ما لا تحب ولا
تسعين ؟ إنما نحن يا سيدتي ملك الزمن ينشئنا وينمينا
وينضجنا حتى إذا بلغنا حاجته ورضاه أكلنا كما يشاء هو
لا كما نشاء ولا كما تشائين . وغريب يا سيدتي ألا تفهمي
مِمَّ يحتاط الزمن ولِمَن يحتاط بحبس هذا السجين ، فإنه
يحتاط للسجين نفسه أولاً ، فمن يدرى لو خلى بينه وبين
الحرية ، لعله أن يكتب كتاباً آخر يسوء به هذه الأشباح
الساخطة الصاخبة ، فيزيدها غيظاً على غيظ وهياجاً إلى
هياج . ويحتاط لهذه الأشباح التي لجأت إليه وقبلت
حكمه ، فمن حقها عليه أن يحميها من كتاب جديد ويحتاط
لك أنت من أن يعود الأسير إلى ما يرى خصومه أنه إثم ،
فيعود هؤلاء الخصوم إلى إثارة الضجيج والعجيج من
حولك وإلى الإلحاح عليك في تسليمه ، ومن يدرى لعلهم
يخرجون عن أطوارهم فيحدثوا في قصرك حدثاً أو
يبتشوا بالأسير بطشاً يسوءك فيه ويحزنك عليه .

لا تذكرى إذن على الزمان احتياطه فهو حكيم فيما يأتى
إن كنت قد رأيته يأتى شيئاً ؛ وهو حكيم فيما يقول إن
كنت قد سمعته يقول شيئاً . إنما الخير يا سيدتى أن
تطمئنى لقول الزمان وفعله ، وأن تصلحى ما بينك وبينه
من الأمر ، وأن تستأذنيه فى لقاء أسيرك من قريب أو
البربه من بعيد ، فذلك أنفع وأجدى من ثورة لا تغنى
عنك ولا عنه شيئاً . إنما الخير يا سيدتى فى أن تتعجلى
نظر الزمان فى هذه القضية حتى لا يطول سجن الأسير ،
وحتى تنتهى هذه القضية كما بدأت فتستريحى ونستريح
ويستريح الزمان . وما أرى أنه سيجيبك إلى السرعة فى
إنجاز هذه القضية ، فإن حياة الناس من حولنا مضطربة كما
ترين ، وأخشى ألا يفرغ الزمان لقضية صديقنا المسكين
قبل أن يفرغ من هذه القضايا الخطيرة الكبرى التى
تفسد ما بين الشعوب .

أما بعد فأنى ما كرهت يا سيدتى ، وما ينبغى لى أن
أكره شيئاً تقولينه لى أو تسوقينه لى . فكل شئ يأتى

منك عذب لذيذ ، تطمئن إليه النفس وينعم به القلب ،
فارضى فالنعيم فى رضاك ، واغضبى فان الألم فى سييلك
لذة ، ولا تحسبى أن ندمك على الاتصال بى وبصاحبى
يسوءنى ، فستعلمين إن لم تكونى علمت من قبل أن
الخلود وحده لا يكفى لسعادة الخالدين ، وإنما قيمة الخلود
أن يتصل من حين إلى حين بالفناء وأصحاب الفناء ليقدر
نفسه ويكبرها ويرتفع عن السأم والملل ، وعن اليأس
والقنوط ، وإلى أن تنعمى على سيدتى بساعة حلوة فى
حضرتك أرجو أن تتفضلى فتمنحنى يدك الكريمة
الرشيقة لأضع عليها قبلة كلها وفاء وحب وإخلاص .

في الحبس للديبلي

أمر « الزمن » بتوفيق الحكيم فحبس في برج ساعة كبيرة في رأس كنيسة « كومبلو » على ارتفاع ألف متر عن سطح البحر ، ذلك أن « الزمن » دائماً يقول : « اذا كانت المساجد والكنائس هي بيوت الله ، فإن أبراج الساعات هي بيوتى » . ولا يعرف غير رب البرج كم من الأيام لبث المتهم في ذلك الحبس ، لا يسمع غير دقائق « النصف » و « الربع » و صرير « العقارب » التى تأكل

حياتنا لحظة لحظة ، و « التروس » التي تطحن وجودنا
ذرة ذرة . وبيننا المتهم قد أطرق يأساً وذللاً ، لا يفكر
فيما كان من أمره ولا فيما سيكون ، كأنما عقله قد كلَّ
وذهنه قد أقفر ، وكأنما يأسه قد أغراه بأن يقذف
نفسه في « طاحونة الزمن » لتحيله العقارب والتروس
الى دقيق يتناثر في الهواء ويعيش ساجحاً في الفضاء . اذا
« الريح » تلقي اليه برسالة مختومة من كوة في قمة البرج .
ففض الرسالة بيد كسلي ونفس ميتة وقرأ :

عزيزى

يشق على أن تخطف منى سريعاً . وأن يذهب عنى
الصفاء الذى أشرق به وجهك فى اليوم الأخير . ولكن
« السارق مسروق » ولقد سرقتك ، فسرقت منى ، إن
« القاضى » لم يأذن لى فى دخول الحبس كى أراك . غير أنه
أذن لى فى الكتابة اليك . ولطف بى فأمر أن تحمل
اليك رسالتى على أجنحة « الريح » . فاذا طالعتها فهل لى

أن أطمع في كلمة منك تقيم بها أودى حتى تعود الى ؟

شهرزاد

وقعت الرسالة من يد السجين ، وقد تغير وجهه .
لكنه التقطها فقرأها من جديد وقرأها وقرأها حتى كاد
يقطعها قراءة. ثم صاح: «هذه المرة قد أصابت مني مقتلا»
« أين القلم والقرطاس ؟ » فتساقطت عليه من الكوة
أقلام وقرطاس . . . فجلس من فوره وكتب :
« سيدتى » . ولكن هذا النداء لم يرقه . فمزق الورقة
وتناول ورقة أخرى وكتب .

« عزيزتى » . غير أن هذا اللفظ أيضا فيه فتور . وهو
يريد لفظا كالسياط الساخنة . فمزق القرطاس وتناول
غيره وكتب :

معبودتى

إن حبك خالد كالوجود . ولن يستطيع الزمن أن
يفرق بيننا أو يحطم حبنا . إن الحب يُخلق فوق الزمن ، كما
يخلق الفراش فوق الأزهار. إن الحب قد قتل الزمن

وما بلغ السجين هذه العبارة حتى سمع ضحكا عريضاً
ورقهقهة خشنة كلها سخرية رن صداها في المكان وارتجت
لها عقارب الساعة . ثم خفت الضحك وتلاه صوت
أجش عميق الذبرات يقول هازئاً :

— من هذا الأبله الذي يزعم أني قُتلت ؟
ولم يسمع السجين غير ذلك . فقد خيم السكون .
وكأن شيئاً لم يكن في هذا المكان . على أن هذا الصوت
الهازيء لم يبرح له صدى يرن في رأس السجين ويلعب
بأفكاره حتى قلبها رأساً على عقب . فرفع القرطاس ومر
عليه يبصره وابتسم ، ثم مزقه وتناول قرطاساً آخر
وكتب :

سيدتي

أما أني خطفت منك سريعاً وسرقت وشيكاً وأنت
الخاطفة السارقة — ولا نخف — فهذا ما يحدث دائماً . فان
السارق كما قلت مسروق . وما جاءت به الرياء ذهبت
به « الزوابع » ! ويظهر أن هذا قانون الحياة كما هو قانون

القصر ! وحياتنا السريعة إن هي الا خطف في خطف .
ولقد خطفتني من أصحابي ، فخطفني منك الزمن ، ولا
أدهش اذا خطفني من الزمن من هو أقوى منه . أما أن
كلمة مني تقيم أودك فهو أمر يدهشني ، ولا أغبطك
عليه . فيالضيعة إنسان تقيم أوده كلمة مني ! وأما
رغبتك في زيارتي بالحبس فهو رفق بي ولطف لا أحسبني
أنساه لك . وبعد فأني أخشى أن تكون كلمتي أغلظ مما كنت
تتوقعين . ويخيل الى ظني السيء بالمرأة أن كل رسالة تخلو
من الإشارة الى « الحب » هي عند المرأة رسالة غليظة .
وأؤكد لك ياسيدتي أنني ما كنت أضن على مثلك بهذه
الإشارة لو لم يكن « الحب » هذا الصبي الرقيق الضعيف
لا يبدأ الكلام أول ما يبدأ الا بتحدى « الزمن » ذلك
الجبار الطاغية المخيف ، ولا يفتح فمه الصغير الا بأغاني
وأناشيد ينظمها من ألفاظ براقية متلائية يرى « الزمن » أنها
له وحده ؛ وأنها ما وجدت الا ليرصع بها تاجه الهائل .
هذه الألفاظ هي « الخلود والأبد والبقاء » يلعب بها

« الحب » الجميل لعب الأطفال بكرات البلور ذات الألوان
تحت أقدام « الزمن » الساخط الساخر . الى أن يضيق
« الزمن » به وبعثه ذرعاً فينفخ نفخة صغيرة فأذا « الحب »
قد طار بأناشيده وألفاظه ولعبه وأغانيه ! ومع ذلك
ياسيدتى فأنت تعلمين أن أمرى الآن بين يدي « الزمن »
وأن « قضيتى » الساعة موضع نظره . فهل أستطيع اليوم
أن أغضب هذا « القاضى » العظيم بالانصراف الى ذلك
الطفل اللعوب ؟ ! ..

وأخيرا ياسيدتى أرجو أن تتقبلى خالص شكرى على
جميل عنايتك ، وأن تأذنى لى فى أن أضع عند قدميك :

توفيق الحكيم

دارت « العقارب » دورتها ، واستقبلتها أجراس
البرج بالضجيج ، ورجعت « الريح » بسرعة تحمل الى
السجين الجواب :

أيها الأسير العزيز

فهمت كل شيء : ما أشد خوفك وخوف صديقك
من « الزمن » !

لقد وجه طه حسين الى كذا كتابا طويلا عريضا
تترنح سطوره فرقا من مخاصمة « الزمن » ، ذلك الغول
الجائع الذي يأكل الناس في غير ميعاد غداء أو عشاء .
ولقد تبينت من قول صديقنا طه أنه لا يريد لك ولا
لنفسه أن تؤكلا نيتين قبل أن يتم نضجكما وقبل أن تفرغا
كل ما في جعبتيكما من كتب ومقالات ، فراح يتهمني في
صراحته الجريئة أنني أريد الموت العاجل لمن أسعى الى
استنقاذه من يد الزمن . زعم غريب ! فأنا لا أعرف
الموت ماهو . لأنى كما تعلم أعيش دائما . وكنت أريد
لكما حياة صافية مثل حياتى فى ذلك القصر الجميل الذى
لا يموت الصيف فيه أبداً . ولكن . . . لتكن مشيئة
صديقك طه . وليمض فى إشفاقه على نفسه وعليك وعلى
الكون المسكين ، الذى لا محالة صائر الى الفناء بعد كما ،

سائر الى حيث تنخر فيه عوامل الفساد إن غادرتماه قبل
أن تريقا عليه كل ما عند كما من محابر ، وتنثرا عليه كل
مافي رأسيكما من نثر !!! واهأ لكم أيها الأدباء !

• لقد طال بي العهد فنسيت أن رؤوسكم الآدمية
العظيمة يوم تقدم للدود لن يجد فيها غير • كلمات
مرصوفة ، لا تسمن ولا تغنى من جوع ! إني في حقيقة
الأمر أرثي لكم معشر الآدميين : ما أشق جهدكم طول الحياة
إرضاء « للزمن » ، وما أشد حرصكم على ألا يلقى بكم في
أعماق بحاره الظلواء ، التي لا يعرف هو نفسه مقرها
ولا غورها : بحار النسيان ! ما حرصكم هذا أيها الحمقى !
إنكم يوم تذهبون لن يعينكم من أمر « الزمن » شيئا .
وسوف تنقلبون أشياء لا تعرف الدنيا ولا تذكرها ولا
تحفل بشعرها وثرها ومجدها . إنكم يوم تتجردون من
هذا الثوب الآدمي ، تتجردون كذلك من تلك الأوهام
والأحلام التي تدفعكم الى تبذير « الزمن » . فالزمن نفسه
ما هو إلا الملك المتوج على عرش تلك الأوهام والأحلام ،

فاذا ذهبت من أدمعتكم ذهب معها . فهو منسوج من
مادتها . وهو أضعف وأوهى مما تتصورون . فهو لا شيء .
غير فنائكم الآدمى تجسم شبها هائلا أحاط بكم من كل
جانب . بل إن مخيلتكم الفانية هي التى أفرزت هذا السم
الذى تسمونه « الزمن » ثم طلّت به حياتكم وسجنّتها فيه .
فشأنكم شأن « دودة القز » تفرز من لعابها تلك المادة
الحريرية التى ما تزال تلتف حولها وتحيط بها حتى تحبسها
وتخنقها وتميتها .

فالوجود نفسه يسخر من تلك الكلمة ولا يعرف
إلا أنها حماقة من حماقات البشر أو ضرورة من ضرورات
حياتهم الزائلة . بل إن الوجود لا يعرف ولا ينبغى له
أن يعرف هذا الكائن الموهوم « الزمن » ولقد استعان
صاحبك بيت من شعر المعرى ، بديع الخيال حقاً :
ولو طار جبريل بقية عمره .

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر
لست أذكر إن كنت أنا التى أوحى إليه به فى ساعة

من ساعات لهوى وعبثي ؛ إنما الذي يدهشني الآن هو
هذا السؤال : هل لجبريل عمر ؟ وهل هو يتحرك بجناحيه
في الزمان والمكان ؟ إذن فهو بشر . إلا إذا قصد بالدهر الله
والوجود . فأن الحركة في الزمان والمكان ليست من صفات
الخالدين تلك كلمات . ابتدعها البشر لأنفسهم ولو صف حياتهم !
إني أعجب دائماً لأولئك الذين يريدون كشف أسرار الله
بكلمات من قاموسهم اللغوي ! أليس من المضحك أن تصطنع
أيديكم الصغيرة ذلك المسبار القصير لتسبر به غور الكون .. ؟ !
أما « الحب » الذي تهزأ به ، فهو حقاً ضعيف رقيق
كالزهرة التي لا تعيش أكثر من يوم . ولكنه جميل
والجمال لا علاقة له بالزمن . فأن اللحظة منه تكفي لأضاءة
حياة كاملة . إن لم تصدقني فاصغ الى همسات فلاسفتك
العظام وقد أشرفوا على الحفرة :

« الكل باطل وقبض الريح ... وا حسرتاه ! ولا
شيء في حياتنا الآدمية يستحق منا الآن تحية وداع : غير
لحظة حب ظفرنا بها »

وبعد فأني أخشى أن أكون قد قسوت عليك ، وأحب
أن تعتقد أني على الرغم من رسالتك لم أزل لك صديقة
وفية . وإني أنتظر نافذة الصبر ساعة الحكم ببراءتك .
وإنك لن تجد مني في كل حين سوى عطف خالص
لا ينتظر أجراً . فنحن الخالدين قد اعتدنا أن نعطي ولا
نأخذ . على أنك إذا تفضلت فقبلت مني ، راضى النفس
صادق الايمان ، ما أبعث اليك مع هذا الكتاب من حب
هادىء ، لا يرجو شيئاً ولا « يتحدى أحداً » ولا يعرف
الأغاني والألفاظ والأناشيد ، فأنتك تعيد ابتسامة الصفاء
الى ثغر المخلصة لك ؟

شهر زاد

*

* *

لم يقرأ المتهم هذه الرسالة مرة ثانية ، ولم يضع وقتاً ،
وتناول من ساعته القلم وكتب :
سيدتى العزيزة :

أبادر فأعترف لك أن كلامك عن « الزمن » قد

أدهشني حقيقة . كلا ، لست أصدق أنك تؤمنين بما
تقولين !

إنما هي ثورة أهاجها في نفسك كتابي ، الذي آثرت
فيه الانضواء تحت لواء . الزمن ، على السكون تحت جناح
« الحب » ، فرأيت أن تنصري « الطفل » ، بأن تحملي على
« الجبار » . على أنى أراك أنت أيضا تنتضين سلاح
« الكلمات » ، حاسبة أنك بها تستطيعين أن تقتلي وأن تمحي
من الوجود هذا الكائن الذي نحيا جميعا في أحشائه .
أتأذنين لي في أن أسألك : أين تعيشين ؟؟ ألا تحسين بأنك
تعيشين في الزمن ؟ هذا الخلود الذي تنعمين فيه ، ماهو ،
وما معناه ؟ أليس هو الحياة المتصلة في الزمن !، إن الزمن
ليس وهما ، إنما هو إناء عظيم لا قاع له يسبح فيه الأحياء
والأموات ، الخالدون والهالكون . فاذا أخرجت منه ،
فاين تكونين وإلى من تصيرين ؟ العدم ؟ إن كان لهذه الكلمة
أيضا معنى أو وجود لكانت قليلة ! فان من خرج من
قصر « الزمن » ، نزع عنه رداء « الخلود » . إذ لا « خلود »

إلا بالقياس الى « الزمن » ! فالزمن كما ترى يفرض سلطانه حتى على الخالدين . فهو الذى يخلع عليهم أبراد « الخلود » الموشاة داخل مملكته التى لا مبدأ لها ولا نهاية ، ولا يستطيع جبريل أن يخرج عن حدودها ولو طار بقية عمره فى أرجائها . نعم ، لقد صدق المعرى وطه ، فأن « الدهر » أو « الزمن » يسع فى محيطه جبريل والكون والوجود . فما دام هؤلاء جميعا قد دخلوا « بحرة » العقل الآدمى فقد خضعوا معه على الرغم منهم ومنه لأمرة « الزمن » . فنحن بغير « الزمن » لانعى شيئا ولا نفقه شيئا ولا تصلح عقولنا لشيء . فان إبرة العقل متصلة « بمغناطيس » الزمن . هكذا خلقنا نحن البشر . وأرجو منك ألا تقولى إن هنالك وجوداً مطلقاً خارج «منطقة نفوذ» الزمن والعقل الآدمى ، فأنى أجيبك من فورى ، إن ما يخرج عن منطقة عقلنا وزمننا لا وجود له عندنا ، لآتنا لا نستطيع أن نتصوره ، فأنت موجودة عندى لأنك قد دخلت منطقة تصورى . وما دمت داخل تصورى فأنى لا أملك أن أدفع عنك سيطرة « الزمن »

الذى يبسط حكمه على رأسى وعلى كل من دخل رأسى
من خالدين وهالكين . أرأيت يا سيدتى قوة « الزمن »
وجبروته ؟ أما قولك إن « الزمن » ، وهم أفرزته رؤوسنا
الآدمية ، فهو كلام يصدق على كل ما تقع عليه حواسنا
من موجودات مادية أو معنوية . فليس هناك فى الواقع
حقيقة ولا وهم . إنما كل شىء وليد رؤوسنا وإفراز
أدمغتنا . فما أنت يا سيدتى العزيزة ، وما الجبال التى تحيط
بى ، وما الكتب التى أقرأها وما الأصدقاء الذين أحبهم
وما أهلى ، وما عملى ، وما مالى إلا إفرازات تخرج من
رأسى . فأنت وه الزمن ، فى هذا سيات . لا أستطيع أن
أسمى أحداً وهما والآخرة حقيقة .

أما دفاعك عن « الحب » ، فهو جميل « كالحب » . ولست
أنكر مطلقاً أنه أعجبنى وأثر فى نفسى . ما أصدقك إذ تقولين
أن لا شىء يستحق منا تحية وداع على الأرض مثل لحظة
حب ظفرنا بها ! نعم .. ولكن .. تلك اللحظة ، أين هى ؟
أستطيع أن نظفر بها فى كل حين ؟

وبعد ، فأرجو أن تغفرى لى هذه المرة أيضا جفاء
هذا الكتاب ، فأنى إنما أردت أن أعيد اليك الثقة
فى مولانا ، الزمن ، فما دام هو الذى ينظم حياتنا ، فهو
ولا ريب الذى يقيم العدل ويرد الحق إلى ذويه .
واقبلى يا سيدتى المحبوبة خالص شكرى على عطفك
الذى تجودين به دائماً على . ولو كنت أرى قلبى جديراً
بك لبعثته اليك رسولا أميناً يقرئك السلام من

أسيرك المخلص

نوفيس

المحاكمة

جاء يوم المحاكمة . وعقدت الجلسة في رأس «الجيل الأبيض» بالقرب من «شامونكس» . واعتلى «القاضي» القمة في هبة ووقار . وهو كائن طويل مديد ، لاظهر له ، ولا يبدو عليه عمر ، له وجهان : أحدهما أسود والثاني أبيض . وقد اتخذ له من «قوس قزح» وساماً يزين صدره الذي كساه الجليد . وعندئذ قصف «الرعد» وهو حاجب الجلسة :

— محكمة !

فنهض الحاضرون رهبة ورعباً قبل أن ينهضوا إجلالاً ،
وسقط ضعاف القلوب منهم مغشياً عليهم ، فلم يلتفت
اليهم أحد ، حتى أفاقوا من تلقاء أنفسهم صفر الوجوه
فوجدوا الناس قد جلسوا فجلسوا وكأن على رؤوسهم
طير الرخ !

وعندئذ هبط من القمة صوت هادئ عميق :
— فتحت الجلسة !

وأشار « القاضى » الى « الزوابع » فصفرت ومضت
ثم عادت حاملة « المتهم » وألقت به على الجليد ثم
استأخرت عنه . وعندئذ هبط الصوت العميق :

— أيها المتهم ، قف !

ولكن المتهم لم يسمع شيئاً . فلقد كانت أسنانه
تصطك ، وفرائصه ترتعد ، لامن الخوف وحده ، ولكن
من البرد . فهو الساعة على ارتفاع خمسة آلاف متر عن
سطح البحر أو يزيد .

ولما رأى « القاضى » أن المتهم لم يبد حراكا . أشار
الى حاجب الجلسة . فتقدم « الرعد » ودنا من أذن « المتهم »
وقصف :

— قف ، أيها المتهم ! ..

وكان لكمة قد أصابت أم رأس « المتهم » فانبطح
على الأرض لا يعى . ثم تاب الى رشده بعد قليل وهو
لا يذكر من أمره شيئا . وسمع همسا خلفه فالتفت . فاذا
شهر زاد مع حاشيتها والى جانبها طه حسين جالس فى
الصف الأول من صفوف المشاهدين وهم يتبعون ما يقع
فى جد وقلق واهتمام . وما علموا أن توفيقا أحس بهم
حتى همسوا اليه مشجعين :

— قف ولا تخف ! ذاك حاجب المحكمة !

— حاجب ... المحكمة ! ..

همس المتهم بذلك كالمخاطب لنفسه من بين أسنان
ما زالت تصطك على الرغم منه : « إذا كان هذا حاجبها فهل

يرجى منها خير؟ ! ، ثم تحامل على نفسه ووقف مترنحاً
كالسكران وصاح :

— أ... أ... أين هو القاضى ؟ لاسؤال ولا جواب
قبل أن تحضروا إلى معطفى الصوفى . سأموت من البرد
قبل صدور الحكم ..

فأشار « القاضى الى » الحاجب ، فتقدم « الرعد » الى
المتهم وقصف :

— أين هو معطفك ؟

فانتفض المتهم انتفاضة كادت تطرحه الى الأرض .
لكنه ثبت والتفت صائحاً :

— النجدة يا أهل المروءة ! أما من حاجب الطف

من هذا ! .. أيها القاضى ، إذا تركت على حاجبك هذا
فأنى لا أضمن حياتى الى آخر الجلسة . فألتبس من عدالتك
لا تجعل بينى وبينك حاجباً .. ! فأن مثلى ان لم تكفه
الأشارة فهو على كل حال لا يحتاج الى مثل هذا الترجمان
الذى يميتنى ويحيينى فى كل لحظة !

— ولكنى أنا فى حاجة الى هذا الترجمان . فأن سمعى

ثقیل ، لاتصل اليه أصواتكم ولا صخبكم وضجيجكم !

— وكيف تسمعنى الآن أيها القاضى !

— أمرت « الريح ، أن تجلس أمامى طول الجلسة

تنقل إلى ما يدور فيها من كلام !

— لا بأس بالريح ، فهى على كل حال أرق حاشية

وأهون خطباً !

— فليكن ما تريد !

وأشار القاضى إلى « الرعد » أن تنح الآن ، فامثل

ووقف فى آخر المكان ينظر ولا يتكلم . وعاد القاضى

إلى المتهم قائلاً .

— أين معطفك فنحضره اليك

فسكت المتهم وأخذ يتذكر :

— أين معطفى ؟ ذلك هو المشكل ! أين تركته وأين

نسيته ، لقد صخبى فى كل مكان . لازمى فى مصر وفى

السفر وفى الجبل . وحتى فى الجحيم بين اللهب ما تركته

وما نسيته ! واليوم وأنا في السماء عند السحاب وبين
الجليد أتركه وانسأه وأصعد بدونه ! ..

فتهاست شهرزاد وطه مبتسمين :

— حقاً لا يحدث هذا إلا من توفيق الحكيم !

وعيل صبر القاضي فقال في شيء من الحدة :

— إنا لم نجتمع في هذا المكان لنظر في قضية

معطفك ! ولا إخالك تعتقد أني عاطل لا عمل لي

في الوجود غير النظر في التافه من أمورك !!

فأطرق المتهم وأرتج عليه . فهضت شهرزاد قائلة :

— فليأذن سيدي القاضي في أن أدل « الزوابع » على

مكان معطفه . إنه في حمام قصرى !

— في حمام قصرى ؟ وماذا يصنع في حمام قصرى !

آه .. نعم .. تذكرت !

همس بذلك المتهم ... وطار « الزوابع » إذ

سمعت قول شهرزاد . وعادت في مثل لمح البصر بمعطف

توفيق وألقته على منكبيه .. وما شعر توفيق بثقل معطفه
حتى اطمأن وقال :

— وأين عصاي ؟

فكظم القاضى ما به وقال :

— انتهينا من .. مسألة المعطف وجاء الآن دور

العصا .. ماذا تفعل بالعصا فى حضرتى .. وهى لا تقى
برداً ولا حرّاً ولا تدفع شراً ولا ضرّاً !

— إنى لا أشعر بأنى أنا حقيقة توفيق الحكيم إلا

بمعطفى وعصاى !

— هاتوا له ما يريد . إن هذا الانسان قد أضاع

« منى » أكثر مما ينبغى فى غير طائل !

ولم يمض قليل حتى كان المتهم ماثلاً بمعطفه وعصاه

بين يدى القضاء مستعداً لكلمته وأمره .. وتنفس

القاضى الصعداء :

— أخيراً !! ألك حوائج أخرى أم ننظر فى الموضوع ؟

— ننظر فى الموضوع .

— حمداً وشكراً ! تقدم أيها المتهم ! ما اسمك ؟

— إسمى توفيق الحكيم ..

— عمرك ؟

— أيها الزمن ، ! ألا تعرف عمري ؟

— معذرة ! صدقت ! إني أعرف عمرك . ومنذا

غيري ينبغي له على الأقل أن يعرف الأعمار ؟ !
صناعتك ؟ ..

— صناعتي ؟ .. أيهما ؟

— أديب وكاتب روائي يخلق الحوادث ويتدع

الأشخاص .. أليس كذلك ؟

— عفواً ، سيدى القاضى ! ليست هذه صناعتي

الأصلية ..

— لست أعرف لك غيرها . تلك هى التى ورد

ذكرها أمامى فى الأوراق .. أديب روائي يخلق الحوادث

ويزور الأشخاص ..

— يزور ؟ !

— أليس الأمر كذلك ، أجب بنعم أو بلا !
وقع المتهم فى حيرة . . وجعل يفكر هنيهة ثم قال
وكأنه يخاطب نفسه :

— نعم ، إني كذلك ، ومع ذلك ، فأنى لست
كذلك . . .

— ما هذا الجواب المعقد ! إنى أطلب إليك جواباً
واضحاً بسيطاً فى لفظ واحد . أتخلق وتزيف ؟ تلك
هى التهمة التى يرمىك بها المدعون .

— أنا أخلق وأزيف ؟ وأنا أعرف القانون .
وكنى رجلاً من رجال القانون ! كلا ياسيدى
القاضى ! . .

— أنكر المتهم التهمة . اجلس إذن أيها المتهم ،
واصغ إلى أقوال المدعين .

أحضروا الشاهد الأول ! . .

وعندئذ استوى « الحاجب » واقفاً ونشر ورقة
فى يده وقصف :

— الشاهد الأول : شهر يار !

فصغرت ، الزوابع ، وأقبلت تلقى بشهر يار أمام
القاضى . وتفرس القاضى فى الشاهد ثم قال :
— اسمك ؟

— شهر يار .

— عمرك ؟ كلا ، هذا من شأنى . . صناعتك ؟
— ملك .

— فى أى مملكة ؟

— فى أى مملكة ؟ لم يسألنى أحد قبل الساعة هذا
السؤال . ولم يخطر لى على بال أن أعرف اسم هذه
المملكة ؟ لست أدرى . سلوا هذا المتهم !
فالتفت القاضى إلى المتهم ، فوقف :

— أيسألنى أنا عن اسم مملكته ؟ وكيف لى أن
أعرف ؟ إن كل ما أعلم عن هذا المخلوق أنه ملك . ولست
أدرى أين مملكته ، ولا أين موقعها من «خريطة» العالم ؟
فعاد القاضى والتفت إلى الشاهد فاعتدل :

— أنا كذلك لست أعرف إلا أنى ملك .

فقال القاضى فى شىء من السخرية :

— حسبك هذا . أقسم إنك لا تقول غير الحق .

— أقسم .

— ما أقوالك ؟

— أقوالى : إن هذا المتهم قد قذفى بالباطل واقترى

على كذباً وزوراً واقعة لم تكن . فلقد جعلنى ديوثاً ؛

أدخل على شهرزاد فاجد عندها العبد فلا أقتله ولا

أشرب من دمه !

فما تمالك المتهم أن وقف وصاح :

— كنت تريد أن أجعل منك قاتلاً سفاكاً يشرب

الدماء . نعم لقد أذنبت وأجرت وأساءت إليك ، إذ لم

أجعلك كما كنت تريد مخلوقاً سخيفاً !

وأراد الملك أن يحتج . ولكن القاضى هدأ من غضبه

وأسرع فأمر المتهم بالجلوس والصمت إلى أن يحين وقت

الدفاع فيتكلم كما يشاء . وأشار القاضى إلى « الزوابع » فأقصت

شهر يار وأحضرت الشاهد الثاني قمرًا . فسأله القاضى
عن اسمه وصناعته ثم عن أقواله . فأجاب الوزير :

— أقوالى ياسيدى القاضى : إن هذا المتهم قدفنى
وحط من قدرى . فلقد جعلنى أقتل نفسى من أجل
امرأة ، فى الوقت الذى يخرج فيه العبد من مخدعها
وينكشف لى إثمها ودنسها !

فتغير لون شهر زاد ومالت إلى أذن طه تهمس :
— لقد أدهشنى الساعة أن يكون ذاك كلام شهر يار
العظيم . . الذى كان عظيمًا حقًا فى آخر أيامه ! ولكن
ما قال هذا الشاهد المدعو قمر الآن أدهى وأمر ! . يا إلهى
ما هذه المخلوقات ! ياله من كابوس ! . .
ولم يطق المتهم سكوتًا فنهض صائحًا :

— يا خيبة أملى فىك أيها الوزير الجميل ! أنت الذى
عشت تعبد مثلك الأعلى النبيل . فلما ذهب عنك ذهبت .
لقد انطفأت فى قلبك شمس حياتك يا قمر ، فقيم بقاؤك ؛
ولكن هذا الشاهد ليس بقمر ، إنما هو فرد من السوق !

فضاق القاضي بالمتهم .

— قلت لك اجلس ولا تنبس ! .. أحضروا الشاهد

الثالث ...

فجئ « بالجلاد » ، وبعد المقدمات المعروفة سأله

القاضي عن أقواله :

— أقوالى يامولاى القاضي : إن هذا المتهم قد نسب

إلى زوراً أنى بعت سيفى الى صاحب الخان . وأنا رجل

« موظف » أقدر واجبى وأعلم أن هذا السيف ليس ملكى

وإنما هو « عهدة » لا يباع ولا يشرى ! .

وعندئذ قام المتهم صائحاً :

— أرجو من عدالة القاضي أن يسأل فى ذلك صاحب

الخان وهو لاشك قد حضر مع الشهود !

فالتفت القاضي الى « الزوابع » :

— أحضروا الشاهد الرابع !

فما مرت ثانية حتى كان « أبو ميسور » ماثلاً أمام

القاضى .

— أنت صاحب الخان ؟

— أجل ، مولاي القاضى !

— هل تعرف هذا « الجلاد » ؟

— كيف لا ؛ مولاي القاضى ، وهو عميلى ومدينى ،

وأحد المدخنين !

— أكان قد باعك شيئاً بدين عليه ؟

— باعنى سيفه .

وعندئذ صاح المتهم فرحاً :

— فليحى العدل ! ظهر الحق وزهق الباطل ! ألا تستحى

أيها الجلاد ! ما أكذبك !

فأسكت القاضى المتهم ثم التفت الى أبى ميسور :

— وأنت ما أقوالك ؟

— أقوالى وحق رأسك أيها القاضى ! عجباً ! لست

أرى لك رأساً ولا ذنباً ، ومع ذلك فهذا ليس بالأمر الذى

يعنينى ، ومادمت أنت القاضى فأنى أشكو اليك هذا المتهم ،

أين هو ؟ لا يشرقى أن أراه ، هذا المتهم يزعم زوراً أنى

أدخن القنب حتى يغيب وعي . هذا باطل أيها القاضي ،
فأني وحق رأسك ، كلا لا شأن لي برأسك ، فرأسك هو
لك . ولست أدري إن كان رأس إنسان أو رأس حصان ..
ولكنه رأس القاضي .. ولكن أين هو رأس القاضي ؛
عجباً إن للقاضي رأسين ؟ رأس لا شك فيه الأداة ورأس
فيه البراءة . . . وإذا تناطح الرأسان . . .

— كفى خلطاً ! إنك الى الساعة غائب الوعي تفوح
منك رائحة القنب ! اطردوه ! . . .

— فليحى العدل ! . . .

— صه أيها المتهم . لا أريد هنا مظاهرات ! الزم
الصمت ! أيها الحاجب ! ناد بقية الشهود ! . . .

فقصف « الرعد » وصفرت « الزوابع » وطار في
كل مكان ثم عادت تعلن أن بقية الشهود وهم « الساحر »
و « زاهدة » قد هربا ولم يعثر لهما على أثر . وأن شهرزاد
و « العبد » حاضرا في الجلسة بين المشاهدين . وعندئذ
قامت شهرزاد وأعلنت أمام القاضي والجمهور نزولها عن

كل حق لها - إن كان لها حق - في مقاضاة المتهم . وقام
«العبد» فتبع أثر مولاته فيما أعلنت . وكانت الشمس قد
غابت ، فمال وجه «القاضي» الأبيض عن المكان ، وظهر
وجهه الأسود ، يملؤه «كلف» دقيق من نور متناثر .
وأطرق القاضي لحظة ثم قال في صوت أشدهدوءاً وأكثراً
عمقاً مما كان :

-- الدفاع !

البرق

ملوكي

وقف المتهم لحظة مضطربا بين صمت الجموع
ووجومهم ، وانتباه شهرزاد والتفات طه حسين وقد
أمسك أنفاسه وأصاخ بسمعه... ثم ارتفع صوت المتهم
رويدا رويدا كأنما هو آت من مكان بعيد :
أيها القاضي العادل :

تهمة خطيرة تلك التي رماني بها المدعون ، أوالمدعيان ،
إذ قد سقط من الحساب اثنان ظهر كذبهما للحكمة ،

وهرب اثنان ضجرا من طول الاجرامات فيما أرى ،
وتنازل اثنان كرمأ ونبلا من دون ريب ، فلم يصمد في
وجهي غير ملك ووزير ! وهذا شرف عظيم !

قبل أن أبدأ دفاعي . أود أن أبدى أسفى لهذه الدعاوى
التي أقامها عليّ ، أشخاص يمتون إلى بسبب . إنه لمن
المؤلم أن أراى منفرداً بين إخوانى الأدباء بهذا الموقف
الذى وضعنى فيه اليوم هؤلاء الأشخاص المحترمون .
وإنى لأعجب كلما تذكرت أن غيرى من الأدباء لم يلق من
أشخاصه ما ألقى من هذا الاكرام . فما هو ذا « هيكل »
يمرح طليقاً لم ترفع عليه « زينب » قضية فى المحكمة
« الشرعية » وهذا « العقاد » لم يقاضه « ابن الرومى » أمام
المحكمة « المختلطة » . وهذا « المازنى » ترك الاموات
والاشباح وأخرج على مسرح كتاباته أهل بيته وذويه
من الأحياء فلم يتذمر أحد منهم . فما بال أشخاصى أنا من
دون بقية الخلق هم الذين قد أساءوا الأدب وثاروا
وتمردوا ، كأنى يوم كتبهم غمست قلى فى مداد ممزوج

بلعاب الجن الأخضر أو ماء الفلفل الأحمر .

وبعد ، فماهى حقيقة الاتهام ؟ إني قد زورت ولفقت
وقذفت إذ جعلت الملك والوزير على صورة لا يرضيانها
لنفسيهما ؟ إني أترك لعدالة المحكمة تقدير الجميل الذى
أسديته إلى هذين المخلوقين بذلك التزوير والتلفيق
المزعومين . إنهما قد مثلا الساعة ورأيناها مجردين عن
ذلك الثوب الذى ألبسهما إياه تلفيقي وتزويرى . ماذا
رأت المحكمة منهما الآن غير ملك جاهل سفاك ووزير
تافه صعلوك ! أين ذلك التفكير الذى وضعته فى رأس
شهریار فارتفع قليلا عن الأرض ، فلم يحفل « بعبد »
شهرزاد الواقف خلف الأستار بقدر ما حفل بما اختفى
وراء عقلها من أسرار . . . !! وهذا الوزير . . .

القاضى — (مقاطعاً الدفاع) إنهما قد رفضا هذه
الصورة على كل حال . وهى فى نظرهما قبيحة !

الدفاع — (يمضى) أيها القاضى ! ليس من حق أحد
أن يرفض صورة وضعها مبدع لأنها قبيحة أو مليحة !

إن للبدع أن يظهر أشخاصه على أى وجه يريد مادام فيها حياة نابضة .

القاضى — وهل من حق المؤلف أن يشوه الأشخاص ؟

الدفاع — وهل من حق الخالق أن يشوه بعض المخلوقات ؟ وهل من حق أن أطالب خالقي بأن يغير الصورة التى وضعنى عليها ، وأن يبدل أنفى الذى لا يعجبني بأنف آخر ، وطبعى الذى يتعبنى بطبع آخر ؟

القاضى — ولكن رجل الفن مطالب بالكمال !

الدفاع — إن الكمال فى الفن وفى الطبيعة هو خالق الحياة النابضة ، لا أكثر ولا أقل .

القاضى — والجمال ؟ ؟ !

الدفاع — الجمال هو الكمال ، هو الحياة النابضة . ولا شئ غير ذلك .

القاضى — أو يستوى عندك فى الجمال : حياة نابضة كحياة المشلولين والمشوهين فى أجسامهم وعقولهم ،

وحياة نابضة أخرى كحياة « ألسياد » الجميل الجسم ،
السليم العقل ، وه هيلين ، البديعة الحسن الذكية الفؤاد ؟ !
الدفاع — سيدى القاضى ! إنك تضيق على الخناق
وتحاسبنى حساباً عسيراً .

القاضى — (باسم) أأست تريد قضاء « الزمن » ؟ !
الدفاع — (يفكر ملياً) نعم ، صدقت ياسيدى . إن
الجمال هو كمال الكمال . هو الحياة النابضة الصحيحة
المتناسقة المصفاة من عيوب النقص والتشويه ، مرت
عليها الطبيعة بيد التجربة والاستاذية على مدى أحقاب
الأحقاب ! ولكن . . منذ يزعم أن هذا « الجمال » فى
مقدورنا نحن الآدميين فى كل حين ! وهل هو فى مقدور
« الطبيعة » فى كل حين ! كم مثلاً من أمثلة الجمال الكامل
فى « الجسم والقلب والعقل معاً » استطاعت الطبيعة أن
تخرجه منذ آدم حتى اليوم ؟ وبأى ثمن صنعت تلك الآيات ؟
وبعد كم من التجارب ؟ أليس الثمن ملايين الملايين من
المخلوقات العادية والناقصة والمشوهة على مر الأحقاب

والعصور ؟ أليس النقص والتشويه والتكرار تجاريب الطبيعة الفاشلة ؟ إن الطبيعة لتكبد العناء هي أيضاً في خلق الجمال ! فهي لا تختلف كثيراً عن « فيدياس » ، إنه كذلك قد أسقط من فئات الرخام الضائع والتماثيل الناقصة أكواماً على أكوام قبل أن يبرز من بينها آيته الفنية « بالاس » ! ومالي أفرق بين الطبيعة وفيدياس . كأن الإنسان شيء مستقل عن الطبيعة ! إنه جزء منها . خاضع للقانون الذي يسيرها . وذلك القانون وحده هو الكامل المنزه ، لا نقص فيه ولا تقصير ، وهو الذي دبرها وأراد هذا القصور . فإذا كان الكمال أو الجمال نادراً في الطبيعة على قوتها وعظمتها ، فإن العمل الفني الكامل هو عند البشر أقل وأندر . ولأتحديث الآن عن نفسي قليلاً ، وأنا بين « يدي » الزمن ، فأقول إني ما زعمت يوماً ولن أزعم أنني صنعت من هؤلاء الأشخاص « المدعين » شيئاً يقرب كثيراً أو قليلاً من الجمال الفني . وإن كنت صنعت ذلك لما عرفت ، فإن صانع الجمال لا يراه . ومن دنا من قمة ،

الكمال أصابه الدوار ففقد شيئاً من إدراكه لما يصنع
ولقيمة ما يصنع ، وأصبح شأنه شأن أولئك الصوفيين
الذين يقفون بأعتاب « الله » بعد صعود طويل وجهد
شاق ، فيغمرهم ضباب النشوة ، فاذا هم لا يرون شيئاً ولا
يميزون بعقولهم شيئاً ، ولما كنت الآن على ثقة بأنى
لا أشعر بدوار ولا بضباب ، فأنى ولا جدال بعيد عن
قمة « الكمال » . وكل ما أزعجك ياسيدى القاضى فى
شأن عملى هذا ، أنى كنت دائماً حسن النية ، سليم الطوية
لا أمل السير بوسائلى الضعيفة ، صاعداً فى ذلك الطريق
الوعر الطويل المؤدى إلى هيكل « الجمال » العظيم ، دون
أن أطمع يوماً فى رؤيته ، ولو عن كذب . إنما أقضى
حياتى أمشى وأتعثر فى أشواك هذا السبيل إلى النهاية .
وعزائى الوحيد أنى أعيش فى طريق « الجمال » وأقضى
نحى فيه . فأذا رفق رب « الهيكل » بى ، وألفانى يوماً
خليقاً أن يضع على قبرى زهرة من حديقته ، فذاك كل
جزائى ، وغاية ما أطمع فيه . . . وأخيراً ياسيدى القاضى .

لست أملك إلا أن أعهد إليك باسمي وشرفي وأمرى
فاحكم بما ترى . وأنت إذا حكمت فأنتك تحكم بالحق
والعدل . ولست أخاف وجهيك . فإن فيك أيها «الزمن»
«سواد» الدهماء ، وفيك «نور» العلماء . وبهذا الحكم
المزدوج على الأشياء لا يفلت حق من مصفاتك ،

* * *

جلس المتهم وقد خيم الصمت العميق في ذلك الليل
الساجي على الجموع الساهمة . وأطرق القاضي ملياً ، ثم
رفع رأسه :

— النطق بالحكم عند الفجر . وليفرج فوراً عن المتهم
بالضمان الشخصي !

فقام ، الحاجب ، ونادى في قصفه :

— من يضمن المتهم ؟

قهضت شهرزاد صائحة :

— أنا أضمنه وأحفظه في قصرى حتى الفجر .

فتحرك « القاضي » ، في جلال رهيب وقال ملتفتاً
إلى شهرزاد :

— لا تقبل المحكمة ضمانك ، لأنها لا تأمنك عليه .

فبهت شهرزاد ووجه الحاضرون ، ولكن القاضي لم
يطل صمته بل قال مخاطباً شهرزاد :

— ولأنك متهمه مثله .

خفتين حمزاد

قلت وقد اتجهت إلى القاضي واثقا بأنه سيرضى ما أقول : فأنا أكفله إن أذنت ياسيدى . قال القاضي فى لهجة حلوة مرة فيها الحنان والسخرية معاً : لو أمنتك على نفسك لأمنتك عليه ، فسقط فى يدى ، واستحييت من أن أفضأ بما فجئت به شهر زاد ، وانتظرت فى الوقت نفسه أن أسمع مثل ما سمعته من توجيه التهمة إلى وأمرى بالتهيؤ للدفاع . ولكن صمت القاضي اتصل حتى قطعه

صوت مخيف اضطربت له الأرض وامتلاء به الجو ،
وأوشك الجبل أن يتصدع منه فرقا ورعباً وتهالك له
توفيق ففارقته قواه وسقطت من يده عصاه وخر كما أنه
مغشى عليه ، وإذا هو الحاجب يقول في قصف الرعد كله ،
إلى يامولاي فأنا زعيم به حتى يتصرم الليل . ثم تاب الهدوء
وثابت معه إلى المتهم قوته وعاد إليه رشده فسأله القاضي :
أقبل هذا الكفيل ؟ قال مضطرباً متهاكاً : على ألا يسمعي
صوته ، فأني أخشى ألا أعود إلى أهلي كما فارقتهم سميعاً .
قال الحاجب في صوته القاصف : لا بأس عليك . قال
المتهم متهاكاً متهاكاً : أو بأس أشد من هذا البأس ؟ .
وصعدت في ذلك الوقت من أدنى الجبل سحابة تسعى في
هدوء ولين ، فجعلت تغمر المتهم قليلاً قليلاً وهو يضطرب
اضطراباً عنيفاً ويصيح صياحاً شديداً يريد أن يخلص
منها فلا يجد إلى ذلك سبيلاً ، وما هي إلا لحظة قصيرة
حتى أخذته من جميع أقطاره فإذا شخصه يخفى وصوته
ينقطع والسحابة تمضي مصعدة أمامها في مثل ما أقبلت

به من الهدوم والوقار . وألفت فلا أجد حولي إلا شهرزاد
وغلامها الأسود وإلا صاحبي وقد أطبق على المكان صمت
ليس أقل عمقا ولا كثافة من هذا الليل الذى غمر كل
شئ . . على أن الفاظ شهرزاد كانت تخرق هذا الصمت
العميق كما كانت أشعة النجوم تنفذ من هذا الليل الكثيف ،
وكانت شهرزاد مغضبة أشد الغضب مغيظة أحد الغيظ ،
ساخطة على هذا القاضى الذى لم يكفه أن رد كفالتها فى
غلظة وعنف حتى اجتراً عليها وتجاوز حقه فيها ، وزعم
لها أنها متهمة كتوفيق يجب أن تدافع عن نفسها كما دافع
هو عن نفسه ، وكانت تقول فى صوتها الفضى الجميل : من
هذا الذى يجرؤ على أن يتهمنى أو من هذا الذى يملك أن
يقضى أمام القضاء ؟ ومن هذا الذى يستطيع أن يكرهنى
على مالا أريد ، ثم ترسل فى الجوقهقهة عذبة متصلة وهى
تقول : لم يبق إلا أن تدافع شهرزاد عن نفسها وتقف
من القضاء موقف المجرمة وهى التى أخذت الناس بالجد
والعبث وعلتهم الاتهام والدفاع . سيعلم هذا القاضى .

كيف أعصيه وكيف أزدريه وكيف أمتنع عليه ، ثم
تلفت إلى وهي تقول فى شىء من الحق تكظمه وتخفف
من حدته : أرأيت إلى مشورتك ياسيدى كيف تعرضنى
للم أتعرض له قط؟ قلت فى : أناة وهدوء : إن شخصك الخالد
ياسيدتى قد يكون بمأمن من هذا البرد المهلك الذى
لا نقوى نحن على احتماله، فان شئت أن ترديه عنا وتحميننا
منه قبل أن نأخذ فى هذا الجدال الذى أظن أنه سيكون
شاقا طويلا . قالت خجلة متضاحكة : لقد أصبت. ما أدرى
كيف ذهب عنى هذا ، ولم تكذ تلتفت إلى غلامها الأسود
حتى تغير من حولنا كل شىء . وإذا نحن فى غرقها الهادئة
الجميلة من قصرها المسحور وإذا هى مستلقية بين وسائدها ،
وإذا الخدم يسعون بين أيدينا بما يرد إلينا القوة والنشاط.
قالت شهر زاد : والآن ياسيدى وقد أتيح لك الأمن
والدفء والهدوء تستطيع فيما أظن أن تتحدث إلى برأيك
فى هذه الجريمة التى ما كنت لأتعرض لها لولا أنى
لقيتك وقبلت رأيك فى أمر صاحبنا المسكين . قلت مهلا ،

أزيلي قبل كل شيء من بيننا هذه الخصومة التي
تخلقها وتجنين بها على ، فأنها خليفة أن تصرفنا
عما يجب من تدبير أمرك . وأنت تعلمين أن
الزمن لا يدعن لما نريد ، وأنه كثير القلب والجروح ، يطيل
الليل إن أراد ويقصره إن أحب ، إنما هي حركة منه يدفع
بها النجوم دفعاً فاذا الليل ينجلي ، أو سكون منه يمسك به
النجوم في الجو فاذا الليل ثابت مقيم . وما أدري أراغب
هو في تعجيل القضاء فيقصر الليل أم راغب هو في الإبطاء
به فيمسك أستاره أن تتكشف ويمنع ظلمته أن تزول .
قالت وقد رفعت كتفها الجميلتين وأشاعت في الغرفة ضحكة
ساحرة ساخرة : ما أشد ما تخاف الزمان ، وما أعظم ما تكبره ،
وما أكثر ما تحسب له الحساب . هون عليك ، إن أمره
أيسر مما تظن ، وإن قلبه أدنى إلى العبث منه إلى الجد ،
وإنه يستطيع أن يتهم ، ويستطيع أن يقضى فلا يغير
اتهامه شيئاً ولا يحدث قضاؤه جديداً . إنما هو كائن مغرور ،
قليل له إنه قوى فظن بنفسه القوة ، وخيل إليه أنه عظيم

فانتحل لنفسه العظمة ، بل خيل اليه أنه موجود فأثبت
لنفسه الوجود. قلت : وقد نهضت يظهر على وجهي الغضب ،
ويضطرب في قلبي الخوف : سيدتي ! إن كنت مصرة على
المضي في هذا الحديث فدعيني أنصرف فاني لا أحب
مخاصمة الزمن ولا أقدر عليها . وإنك لتخدعين نفسك
وتكلفينها أكثر مما تطيق ، فقد قبلت الاحتكام الى هذا
القاضي . أترين أنك كنت لالعبة ؟ ثم ما يغضبك من اتهامه
اياك وأنت قد قبلت حكمه وسعيت الى مجلسه ، وما زلت
تنتظرين قضاءه وتخافين في أعماق نفسك أن يكون قاسياً
على صديقنا البائس ؟ قالت في رفق : عد الى مجلسك ياسيدي
فما دفعني الى ما تكره الا ما أجد في نفسي من الحفيظة
والموجدة . وما كنت أقدر أن أهان وأتهم جزاء على
ما قبلت من الاحتكام الى الزمن والرضى بقضائه بين توفيق
وتلك الأشباح . قلت : بل جزاء على عبثك به واستطالتك
عليه فيما كتبت الى أسيرك الذي أخذ منك وأنت كارهة .
قالت : ومهما يكن من شيء فأنت أصل الخصومة التي

أخذت نفسى تضيق بها على قلة ما تضيق نفسى بالأشياء.
قلت : فهذا هو التجنى الذى لا أطيعه ولا أرضاه، وإنك
لتعلمين أنى ماسعيت اليك إلا بعد أن دعوتنى، وما اهتديت
الى قصرك هذا إلا حين دللتنى عليه، بل حملتنى اليه حملا
واختطفتنى اليه اختطافا. أفتعتقدين الأمر وتخلقين المشكلات،
ثم تلقين تبعه ما تفعلين على الأبرياء والآمنين الذين أقبلوا
يصطافون، فنصبت لهم من الشباك والأشراك ما ورطهم
فى هذه القصة المعقدة التى لا يعرفون لأنفسهم منها مخرجا ؟
سمعت شهر زاد لهذا الحديث هادئة ثم فكرت فيه مغرقة
فى التفكير، ثم رفعت رأسها الى وهى تقول: ربما كان هذا
كله حقاً، ولكن الأمر ما زال أيسر مما تظن، فأنت واثق
بأن القاضى سيعدل فى أمر صاحبك، وإذن فستذهب الى
مجلس القضاء وستسمع الحكم، فاذا برىء صاحبك عدت
معه آمنين الى حيث تستأنفان اصطيفكما. كأن لم تلقيا
شهر زاد ولم تعرفا قصرها المسحور. قلت ساخراً: ما أيسر
ما تقولين ذلك، كأنك تجهلين أن لقاءك فتنه وأن قصرك

سحر، وأن من دنا منك لا يستطيع أن يطيل النأى عنك،
وأن من خرج من قصر ك لا يستطيع أن يسلو عن الرجوع
إليه ! هل لك أن تدعى هذا الدل وتعرضى عن هذا التيه،
حتى تفرغ من هذه القصة التى طالت واشتد تعقدها ؟ قالت
صدقنى إنى لأبعد مما تظن عن الدل والتيه؛ ولكن أكبر
نفسى وأنفسكم أيضاً من أن أخضع لسلطان وإن
كان سلطان الدهر، ومن أن قبل اتهاماً أو اتهاماً لدفاع. قلت:
ومع ذلك فأنت متهمة ولا بد من أن تدافعى عن نفسك.
قالت: كلا إن لى عن ذلك مندوحة، فأنت تعلم أن هناك أستاراً
يكفى أن ترفع وأن تسدل بعد أن أجوزها وإذا أنا بما من من
كل عادية لا يبلغنى شيء ولا يصل الى أحد وإن كان الزمان.
قلت: نعم ومن وراء هذه الاستار كنت تريد أن تلقى
توفيقاً. قالت كنت أريد أن أحفظه. قلت فانك لا تجهلين
أن ما وراء هذه الاستار يسمى الموت بالقياس إلينا
ويسمى النسيان بالقياس اليك. أقترضين أن تسدلى أستار
النسيان بينك وبين الأحياء. قالت لقد بلوت الأحياء

حتى ضقت بهم، وما أكره أن أستريح منهم دهرا، فلينسوني
ولانسهم، وما أظن أنى سأشقى بهذا كما يشقون . قلت :
ما كنت أعرف فيك هذه القسوة ، إنك لتعلمين أنك عزاء
الاحياء وسلوتهم ، وأنك رحمة البائسين ونجاة الهالكين
منهم . ومع ذلك فلن يخلى الزمن بينك وبين ما تريد
للأحياء من هذه الحياة الخشنة الجافة التى يملؤها الجحيم
والعذاب المقيم . قالت وقد نهضت مغضبة : الزمن أيضاً ؟
فأنا إذن مثلكم أمة له مذعنة لسلطانه لا أستطيع منه فرارا .
قلت :

ولو طار جبريل بقية عمره .

قالت وهى لا تكاد تملك نفسها :

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

سخر هذى به شاعر من شعرائكم ظنه وظنتموه فلسفة

ولم تعرفوا أنه الهراء الذى ليس وراءه شيء . سترى ياسيدى

أأستطيع الخروج من الدهر أم لا أستطيع . ثم دقت يد أيدى

فأقبل غلام أسود . فقالت له : سترعى هذا السيد حتى يفرغ

صاحبه من قضيته ثم تبلغهما مأمهما ثم تلحق بي وراء
الاستار. قال الغلام: الاستار ياسيدتي، إنها مأخوذة علينا.
قالت من أخذها؟ قال جنود القاضي، إنهم يقومون
دونها منذ وجه إليك ماوجه من حديث. قالت فستتظرنني
إذن في القصر حتى أعود. قال تعودين من أين ياسيدتي؟
قالت من وراء الاستار. أأست قد زعمت أن الطريق
مأخوذة عليكم؟ قال وعليك أيضاً ياسيدتي! هنالك ثار
ثأرها فنهضت ولطمت خد العبد. وإذا هو يبحثو بين
يديها مستغفراً ولكنها مضت أمامها لا تلوي على شيء.
وتبعها العبد مستخدماً خجلاً. ولبثت في هذه الغرفة
مضطرباً بين الحيرة والدهش والغضب، لولا أن صاحبي،
أقبل يهمس في أذني لقد انتصف الليل. ولم أكأ أسمع
هذه الجملة حتى انجلت غنى غمرة هذه القصة كلها وذكرت
الفندق ومن خلفت فيه، ونهضت عجلاً قلقاً أسأل صاحبي،
ومن لنا بالعودة وكيف الطريق إلى الفندق؟ وماذا عسى
أن يظن بنا من الظنون. ولم يكأ صاحبي بهم بالجواب

حتى أقبلت شهرزاد شاحبة غاضبة لا تملك نفسها من
الغضب والغیظ فتلقي على صاحبي نظرة يطير لها لبه ،
فيرجع أدراجه مسرعا ، ثم تتحول إلى قائلة وقد تجاوز
السخط بها حده : إنك تفكر في العودة إلى أهلك . كلا
ياسیدی : يجب أن تعلم أني أسيرة في هذا القصر ، أسيرة
قاضيك الذي اخترته ووثقت به ، فلتكن أنت أسيری
ولن يخلی بينك وبين الحرية حتى يخلی بينی وبين النسيان !.

علم الزمان

فلما تقضى الليل الا اقله

وكادت توالى نجمه تتغور

بمنا مجلس القضاء، فكنا السابقين اليه، ولبثنا لحظات
مأخوذين يبهرنا هذا الجلال الذى لا يرقى اليه الوصف، جلال
الصمت قد امتدت أرجاؤه حتى طبقت الجو كله من حولنا،
لا تشقه إلا هذه الموسيقى الضئيلة المتهاكمة التى كانت
تضطرب فيه اضطرابا متصلا حلوا، فيه أمن للقلوب ولذة

للنفوس، والتي كانت تصدر عن هذه الحشرات الضئيلة المنبثة
المستخفية في ثنايا ذلك العشب الكثيف . وجلال هذه
الظلمة التي كانت تروع لكثافتها وامتدادها من كل نحو وفي
كل وجه ، لا تشقها الا أشعة ضئيلة متفانية ، ملائمة لتلك
الموسيقى الضئيلة المتهالكة ، كانت تصدر من هذه النجوم
البعيدة التي أخذت تجد في الهرب ، كأنما كانت تريد أن
تبلغ مأمنها قبل أن يدركها ضوء الصباح . وكانت نفوسنا
تجد في أعماقها شعورا قويا بجمال حزين مغرق في الحزن ،
كأنه صورة لهذا الكون الذي كان يحيط بنا وبغيرنا ،
والذي كان يأتلف من مزاجين مختلفين أشد الاختلاف ،
ظلمة كثيفة قد شاع فيها صمت عميق وأصوات نحيلة
تصعد من الأرض فتلقاها في الجو أشعة ضئيلة تهبط من
السماء . ومع أنا كنا قد افترقنا مختصمين او كالمختصمين
منذ ساعات قصار ، فقد أحسست نفسي تدنو من نفس
شهرزاد . وما أرى الا أنها كانت تجد مثل ما أجد ، وإذا
يدانا تلتقيان ، وإذا هي تسألني في صوت لم يكن أقل

نحو لا من بعض هذه الأصوات التي كانت تضطرب في
الجو، مارأيتك في هذه الموسيقى؟ أليست باهرة للعقول
ساحرة للقلوب، منسية للخطوب والأحزان؟ وأهم أن
أجيبها، ولكن يدها اللطيفة تضغط يدي الخشنة كأنها
أنكرت صوتها فهي لا تريد أن تسمع صوتي، وكأنها تؤثر
ألا يأخذ الحديث بيننا طريق الألسنة والأسماع، بل طريقا
أخرى هي أيسر وأقرب، وهي طريق النفوس حين تتحدث
إلى النفوس في غير صوت مسموع أو جرس محسوس .
وما أدري ألبثنا كذلك وقتا طويلا أو قصيرا، ولكننا
نشعر فجأة كأننا انتزعنا في عنف من عالم الغيب ورددنا
في قوة إلى عالم الشهادة . وهذه سحابة تسعى في وقار
وأناة كأنما تنزلق على الجبل حتى اذ جازت هذا المكان
الذي كنا نقيم فيه لم تقف ولم تتمهل، وإنما مضت في طريقها
منحدرة ولكنها تنحسر في لطف وظرف عن شخص
نجدته ماثلا أمامنا، فإذا تبيناه عرفناه وإذا هو المتهم عليه
معطفه وفي يده عصاه . وأنت تستطيع أن تسأله عن

ليلته تلك التى قضاها ضيفا على السحاب ، فقد حدثنا عنها
حديثا طريفا ظريفا شائقا رائقا ما أريد أن أسوقه اليك ،
لأنى أقدر حقوق الأدباء فى إذاعة ما يعرض لهم من
الأحداث ، وما توحى اليهم به الخطوب ، ولا سيما فى
هذه الأيام التى اشتدت فيها مطالبة الأدباء وأهل الفن
بحماية حقوق المؤلفين . وما أظن أن صديقنا يبخل عليك
بهذا الحديث فقد سمعته يتحدث الى نفسه — وما أكثر
ما يتحدث صديقنا الى نفسه فيسمع الناس — بأنه خلق
أن يذيع هذه القصة فى كتاب . وأخذت أشخاص مختلفة
متباعدة تبلغ هذا المكان ، منها ما يصعد ومنها ما يهبط ، ومنها
ما يأتى عن يمين ومنها ما يأتى عن شمال ، وكل صامت لا يسمع
له صوت ، وكل هادىء لا تحس له حركة . ثم يضطرب الجو
ويهتز الجبل وتمتلئ النفوس مهابة ووقارا فقد قصف الحاجب
العنيف بأن القاضى قد أخذ مكانه من مجلس القضاء .

ثم يمتلئ الجو من حولنا بصوت رقيق رفيق يدعو
شهرزاد ويتهمها بأنها أهانت القاضى باللفظ والكتابة ،

ويسألها أن ترد عن نفسها هذه التهمة إن عرفت الى ذلك
سبيلا . فتقف شهرزاد ولا تقول الا ألفاظا قليلة ، ولكنها
قاسية بما كان يملؤها من سخرية ويترقرق فيها من مزاح ،
ولله ذلك الصوت ما كان أعذبه وأجمل موقعه من القلوب
حين كان يذيع في ذلك الجو الرهيب نغماته الساحرة التي
كانت تشيع فيه شيوع الكهرباء فتسحر لها النفوس ،
وتسرى لها في الأجسام رعدة لذيدة لا تعقب أذى ولا
ألما ، قالت شهرزاد: لا أقف هذا الموقف لأدافع عن
نفسى ، فلست أعرف لأحد الحق فى أن يتهمنى بأثم مهما
يكن . وأنا الحرية كلها ، الحرية التى تشيع النشاط فى
العقول وتذيع الحياة فى القلوب وتبعث الحرارة
فى العواطف والمشاعر والأهواء . أنا الحرية الخالصة التى
لا تعرف حداً ولا مدى ولا تنتهى إلى غاية ولا أمد ،
ولا ترجو لشيء ولا لأحد وقارا . أنا الحرية الطاغية ،
التي يظلم كل من يحاول أن يحد من طغيانها ، ويغنى كل
من يحاول أن يكبح من جماحها ، لأن نظام الحياة ، بل نظام

الكون، يريد لها على أن تكون طاغية جامحة لا تدعن لقوة ولا تؤمن لسلطان، لا أقف هذا الموقف لأتلقى اتهاماً، لأنى فوق الاتهام، ولا ألقى دفاعاً لأنى فوق الدفاع. وإنما أقف لأرد هذا القاضى إلى رشاده وأعيد إليه فضلاً من صوابه، وأنعى إليه نفسه إن مضى فى غروره أو أسرف فى غلوائه، فظن أنه يقدر على الحرية ويسيطر على شهرزاد. لقد أصاب المتنبي حين قال منذ ألف سنة.

قال توفيق مقاطعاً. وأنت أيضاً قد أدركتك عدوى المتنبي؟ ولكنهم يمرض فى حديثه. فقد قصف الرعد قصفة رده إلى السكوت، ومضت شهرزاد فى حديثها عن إصابة المتنبي حين قال منذ ألف عام:

أتى الزمان بنوه فى شببته

فسرهم وأتيناه على الهرم

قالت وكنا نحسب أن ألف عام لا تعدل يوماً بالقياس إلى هذا القاضى، وأنه يستطيع أن يهرم على مهل ويشيخ فى أناة، دون أن ينتهى إلى خرف ويفارقه

حلم أو يذهب عنه صواب . وكنا نظن أن آلافا وآلافا
من السنين ستمضى قبل أن نحتاج إلى أن ننبه بين حين
وحين أنه أخطأ في الحكم أو جار عن قصد السبيل .
وكنت أتمنى ألا يكون منه مكان تلك الفتاة الاعرابية التي
كانت تفرع لأبيها العصي تنبهه أنه جار في الحكم أو حاد
عن القصد ، ولكن قاضينا أسرع إلى الهرم وأسرع
الهرم إليه حتى تجاوز كل حساب ، وما كان ينبغي لي أن
أجهل ذلك أو أجادل نفسي فيه وأنا أرى بوادره تشيع
في أقطار الأرض وتفسد على الناس حياتهم في غير بيئة ،
فاذا الحرية تضطهد ، وإذا آثارها تصادر ، وإذا العقل
ينفى من الأرض . وإذا الأقلام والألسنة تخضع بألوان
القهر والمراقبة والتضييق . وإذا رسل يعودون إلى
يائسين بائسين ، يشكون زهد الناس فيهم وفيما يحملون
إليهم من ثمرات الحرية التي تضيع الخصب في العقل
والشعور . كنت أظن أنها أزمة تأتي الناس من إسرافهم
في الحضارة وتعرضهم لأخطارها وأمراضها التي تعرض

وتزول، فاذا هي أزمة تأتيهم من أيهم الزمان الذي فارقه
الشباب وتصرفت عنه الكهولة القوية وأدركته
الشيخوخة وما يتبعها من أعراض الفناء والانحلال، إلا
أن أكون مخطئة وأن يكون هذا الشيخ الوقور مريضاً
ألم به بعض العلة، وإذن فأنا كفيلة بعيادته والقيام على
تمريضه والطب لما يلح عليه من الداء، قال القاضي
في صوته الهادئ الشائع العريض: حسبك يا شهرزاد
فقد استنار القاضي، ثم دعا المتهم وسأله: ألا تريد أن تزيد
على ما قلت شيئاً. قال توفيق وهو يرتعش ارتعاشاً
عنيفاً: لا يا سيدي، ولكني أتوسل إليك ألا تحملني
من تبعات شهرزاد قليلاً أو كثيراً فأني أراها أسرفت
كثيراً، فليكن إسرافها على نفسها لا علي.

قالت شهرزاد وقد التفتت إليه ضاحكة: «ويحك!
وكذلك خنتي قبل أن يصيح الديك!» ثم غمر المجلس
صمت عميق لم يتصل إلا لحظات قصار، وإذا نحن
نسمع صوتاً هادئاً عذباً يتلو علينا الحكم، ولكننا لا نتبين

من أين يبلغنا هذا الصوت . قال الصوت والآن وقد
سمعنا ادعاء المدعين ودفاع المتهم الأول : ولاحظنا اعتزال
من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام ، نقرر أن من
حق الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون
هم ، بل إن من الحق على الأديب أن يتأق أشخاصه كما
يؤديهم إليه فنه . لا يغير من صورهم التي تلقاهم عليها ولا
يبدل . ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلا .
ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو
بعضها ، وأن يعيب عليه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف
أو نقص أو تشويه . وما ينبغي لهذه الأشخاص نفسها
أن تثور بمنشئها أو تمكربه أو تكيد له أو تتألب عليه ،
أو تبغى له سوءاً أو تستنزل عليه عقاباً . فان فعلت فهي
طاغية يجب أن ترد عن طغيانها ، وباغية يجب أن تصد عن
بغيا وجائحة يجب أن يكبح جماحها ، ومنشئها وحده هو
القادر على ذلك ، وسيله إليه ترقية فنه وتجديده واصطناع
الأناء والدقة والاتقان في التصوير والتعبير جميعاً . ولما

كان المتهم نفسه قد اعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم
بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطلب السعى ، وإلى أن يجد
ويعمن في الجد لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه . ولما كنا
نقدر للتهمة تواضعه وطموحه إلى الكمال واعترافه ببعده
الأمم أمامه . ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على
ما يريد من الرقي الفني ، فقد قضينا أولاً بأسقاط دعوى
المدعين وتبرئة المتهم مما وجه إليه . ثانياً بنفيه عن
سالنش وعن الأرض الفرنسية كلها شهراً وإرساله إلى
سالزبورج حيث الفصل الموسيقي وحيث يستطيع أن
يجد من جمال الفن ما يدنيه خطوة أو خطوتين من
الكمال .

ثم انقطع الصوت لحظة أتاحت لتوفيق أن يدفع من
صدره آهة عميقة تصور ابتهاجه بما حظ عنه من ثقل
وما أزيل عنه من حرج ، وما مهد له من سبب لترك
سالنش وسمكها الذي لم يصطد ، إلى سالزبورج وموسيقاها
الرائعة الحلوة معاً . ولكن الصوت يعود فيملاً علينا الجو

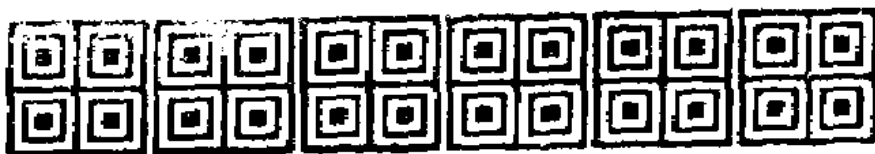
من جميع نواحيه قائلا : أما المهمة الثانية فبعد أن سمعنا دفاعها
الذى تزعم أنه نعى علينا وتأديب لنا، نقرر أن من حقها
أن تستمتع بطبيعتها التي هي الحرية الخالصة ، ولكن في
غير إسراف ولا جموح، لأن الإسراف في الحرية قتل لها
واعتماد عليها . ومن حيث أنها قد تجاوزت الحد وجارت
عن القصد واستطالت على السلطان ، بعد أن اطمأنت إليه،
وثارت به بعد أن اعتمدت عليه في إقرار العدل . ومن
حيث أنها بهذه السيرة تؤذى نفسها ، وتؤذى الذين يتبعونها
من رسلها الخالدين وأشياعها الهالكين . ومن حيث أننا
أحرص على الحرية وأرفق بها من أن نخلّي بينها وبين هذا
الطغيان الخطر، ومن حيث أنامع ذلك نقدر حاجة الحرية
إلى أن تمتد لها الأسباب ولا يشتد عليها التضييق . فقد
قضينا بأن يلزمها الأرق المضني الذي تعانيه إلى آخر
الصيف .

هنا نهضت مندفعاً في شيء من العنف غير قليل قائلاً
في صوت لم أملك تهدئته ولا تنظيمه ، إذن فلن تارق

وحدها مابقيت قريبا من القصر المسحور . قال توفيق
في صوت المنكر الدهش : مارأيت مثلك رجلا يعترف
بالسلطان ثم يتحداه ويخرج عليه ، والتفتنا فاذا كل شيء
قد عاد إلى هيئته قبل أن ينعقد مجلس القضاء، ظلمة مطبقة
تضطرب فيها أشعة النجوم المنهزمة وصمت عميق تتردد
فيه أصوات الحشرات المتغنية . وتوفيق حائر الطرف
يهز رأسه عجا ودهشا واستغرابا ، ولسانه يتردد في فمه :
حقا لأدري أين أنا أو ماذا يراد بي . وشهرزاد تقول
في صوتها العذب: أنت على قمة الجبل الذي طالما تمنيت أن
تصعد فيه ، وطالما غرك به الغرور، فظننت أنك تستطيع
أن تبلغ قمته ثم تنتهي إلى حضيضه في ساعات، ولا يراد بك
إلا ماتحب لنفسك وما يحب لك الزمان من الاستماع
للموسيقى في سالزبورج ، قال توفيق: ولكن كيف السبيل
إلى سالنش لأركب القطار. قالت شهرزاد لا بأس عليك.
سنبلغك مأمنا ، وإن خنتنا قبل أن يصيح الديك ، وهنا
أراد توفيق أن يعتذر ، ولكنها أخذت عليه طريق

الاعتذار قائلة له: بل أنا المعتذرة اليكما، فقد كلفتكما أهوالاً
وحملتكما أثقالاً وضيعت عليكما شهراً من أشهر الصيف .
قلت: لم تضيعي علينا شيئاً ياسيديتي ، بل رفعت علينا وأرحتنا
من سخف الحياة بما فيها من جد الأمر وهزله . قالت : من
يدري ، لعلك لم تخطيء ، ولعل ما في هذه القصة من سخف
لا يلائم ما ألف الناس من سخف الحياة الجادة والهازلة أن
يسلى غيركما من الناس عن أثقال الدهر وهموم الحياة ،
فما أظن أن الناس تعودوا عندكم أن يروا أديبين يعبتان
بنفسهما وبالآداب ... أذيعا هذا اللغو إن شئتما ، فمن يدري ،
لعل اللغو يكون خيراً ما في الحياة .

وأدرك شهرزاد الصباح
فسكت عن الكلام المباح



القصر المسحور

صفحة							
—	...	...	...	...	...	...	الأهداء
١٢	...	...	...	...	...	...	سمير شهرزاد
٢٣	...	...	...	...	...	...	سجين شهرزاد
٤٨	...	...	...	...	...	...	من شهرزاد
٦٠	...	...	...	...	...	...	الى شهرزاد
٧٤	...	...	...	...	...	...	في الحمام
٩١	...	...	...	...	...	...	ثورة الاشباح
١٠٢	...	...	...	...	...	...	نحلة توفيق الحكيم
١٠٧	...	...	...	...	...	...	في حضرة شهرزاد
١٢٤	...	...	...	...	...	...	القلق على توفيق الحكيم
١٣١	...	...	...	...	...	...	شكوى شهرزاد
١٣٨	...	...	...	...	...	...	مؤاساة شهرزاد
١٤٨	...	...	...	...	...	...	في الحبس الاحتياطي
١٦٣	...	...	...	...	...	...	المحاكمة
١٧٩	...	...	...	...	...	...	الدفاع
١٨٨	...	...	...	...	...	...	غضب شهرزاد
١٩٩	...	...	...	...	...	...	حكم الزمان